رواية

أغصان في مهب الريح

أحمد سليمان أبكر

دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

أغصان في مهب الريح

أحمد سليمان أبكر

إذا كانت شجرة العائلة لها جذع راسخ يتمثل في الكبار الذين صقلتهم تجارب الحياة،فلهذه الشجرة أغصان(فروع)غضّة وهم الصغار الذين لم تُلقى بهم المعرفة بذورًا ولم تمش عليهم أقدام الاختبار،وفي حاجة بأن يتعهّدهم الكبار بالرعاية والتعليم الجيدين حتى يسطيعون مواجهة نوازع الشر التي في دواخلهم من جهة ونوائب الحياة وتقلّباتها من جهة أخرى.

ISBN: 978-91-89273-58-0

دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm

رواية

أغضان في مهب الريح

أحمد سليمان أبكر أحمد

الكتاب: أغصان في مهب الريح

المؤلف: أحمد سليمان أبكر أحمد

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

ISBN: ٠-٥٨-٨٩٢٧٣-٩١-٩٧٨

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: ٤٤-١٧-٠٤-١١-٢٠٢٠

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، ڤاسترا جوتالند

هاتف: ٠٠٤٦٧٩٠١٨٥٥١٨

البريد الإلكتروني:

digitizethearabicbook@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة لدى دار رقمنة الكتاب العربي-ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

إهداء

إلي أولئك الذين يغفلون عن أن الحياة اختبار فيها ما فيها من العواصف التي حتما ستدفع بذوي الهمم نحو تصحيح المسار.

المؤلف

القضارف ٥ ديسمبر ٢٠١٨م

(١)

كان اليوم الدراسي على وشك الانتهاء عندما توسط أحد الطلاب باحة المدرسة، وأخذ يقرع الجرس بشدة، ويصيح بأعلى صوته:

طابور، طابور، طابور

تدافع الطلاب إلى الاصطفاف، وهم بين الفضول والوجل يتسائلون:

ماذا هناك؟

فمثل هذه الطوابير الطارئة غالبًا ما تنذر بعقاب.

اصّطف بعض المعلمين على يمين المدير، وبعضهم الآخر على يسار الوكيل، وأمامهم منضدة صغيرة عليها ظرف كبير ؛ بلون أبيض..

تقدم الوكيل وقال بعد السلام:

نحن اليوم سعيدين بأن نحتفي في هذه الوقفة القصيرة بابننا الطالب الفهيم برير حاج حمد الكاظم، الذي اُختير طالبًا مثاليًا على مستوى ثانويات الولاية؛ فليتقدم لتكريمه.

خالج الفهيم شعورًا ما بين الغِبطة والرهبة، فتنهد تنهيدة عميقة حاول أن يطرد بها شبح الرهبة وقد ارسمت على شفتيه ابتسامة

مضطربة، ثم تقدم حتى وقف بين يدي المدير الذي قلّده الوشاح وسلّمه الشهادة وسط تصفيق حار دوى به المكان..

انتهى اليوم الدراسي بنهاية ذلك الحفل القصير.

حمل الفهيم حقيبة كتبه وشهادة تكريمه وجدّ في السير إلى المنزل.

سبقه أولئك في خروجهم من المدرسة، لكنهم كانوا يتسكعون في سيرهم كعادتهم، وهم مستغرقون في تصفّح هواتفهم المحمولة التي أدمنوا تصفّحها حتى حال وجودهم في قاعة الدرس.

أمجد،مترف ومدلل، والداه يقيمان في إحدى دول البترودولار؛ يتنقل في إقامته ما بين منزل جده لأبيه ومنزل جده لأمه، لكنه يميل إلى الأخير ذلك الثري الذي يغدق عليه بسخاء ويلبي له كل طلباته، دون أن يقيده بقاعدة إفعل ولا تفعل؛أما جده لأبيه فهو ذلك المعلم المربي الذي لا يترك شاردة ولا ورادة إلا أثنى على قويّمها وقوّم معوجّها الأمر الذي كان يحمل أمجد على التحفظ كثيرًا في الإقامة عند جده لأبيه، لأنه كان يريد أن يستمتع بالحياة بعيدًا عن أي قيود.

سمير،مدلل وطائش،والده مدير لإحدى الشركات الحكومية الكبيرة. يعيش في رغد من العيش بلا رقيب ولا حسيب، فأما والده فكثير

المشاغل والتسفار، وأما والدته فمنفصلة عن والده ومتزوجة من شاب في سن بنتها الكبرى.

شمعان ابن عامـــل بسيط، متمرد ومغامر لا يدخر جهدًا في الوصول إلى مبتغاه مهما كلّفه الأمر من مشقة وعنت.

تدافع سمير وشمعان لإلقاء نظرة على شيء ما في محمول أمجد،الذي رفع رأسه مقهقهًا وملتفتًا إلى الوراء فرأى الفهيم قادمًا نحوهم، فهمس إلى صاحبيه:

شباب، قِفوا، ها هو صاحبنا قادم..

توقفوا حتى تجاوزهم الفهيم قليلًا..

فصاح به شمعان من خلفه:

ما بك يا رجل، ألا تلقي علينا السلام؟

فرد الفهيم:

عفوًا، ألم نكن قبل قليل في المدرسة؛ومع ذلك أنا آسف، السلام عليكم.

أمجد:

وعليكم السلام..

مد سمير يده بكل صلف لسحب شهادة التكريم من بين يدي الفهيم الذي دفعه ورمقه بحنق.

تدخل أمجد عاتبًا على سمير ومعتذرًا من الفهيم، ومستأذنًا منه لإلقاء نظرة على الشهادة، فمدّها إليه الفهيم دون أن ينطق بكلمة؛ ألقى ثلاثتهم نظرتهم على الشهادة، ثم ردها أمجد لصاحبها قائلًا:

ما رأيك يا فهيم أن نحتفل بهذه المناسبة في عطلة رأس السنة بعد غدٍ في رحلة نيلية ونسهر على ضفاف النيل؟!

ثم أردف مبتسمًا:

ونأمل أن يكون ذلك عربونًا للصداقة بيننا..

صمت الفهيم قليلًا،وهو يفكّر في هذا العرض المغري، رحلة نيلية..كم أنه محتاج لمثل هذا الترفيه خاصة أنه يتمرّغ في الملل منذ قدومه إلى المدينة وهو لا أنيس له ولا صديق ثم قال وقد انفرجت أسارير وجهه:

حسنًا،دعوني أخبر عمي، لأرد عليكم..

قهقه شمعان ملء فيه وقال له بإزدراء:

لا زلت يافعًا تستأذن غيرك!

عندها ثار الدم في وجه الفهيم،وقد تميز غيظًا لهذا القول المهين؛ فانقضّ بلكمةٍ عنيفةٍ على صدر ذلك الوغد المتبجح، وقبل أن يسترد أنفاسه ألحقه الفهيم بلكمة أخـــــرى في وجهه أعنف من الأولى جعلته يسقط على الأرض وهو يلعق الدم من أنفه..

سارع أمجد بالتدخل وفك الاشتباك بين الطرفين، وقد أخذ يوبخ شمعان على كلامه الجارح الذي أصاب به الفهيم وأنه هو أي (شمعان) من بدأ بالإساءة والبادئ أظلم..

أما سمير، فقد جمد الدم في عروقه ،وخرس لسانه إلا من همس يهنئ فيه نفسه بالسلامة من تلك اللكـــمات التي كانت ستكون من نصيبه جزاء وقاحته التي حملته على جر الشهادة من قبضة ذلك الريفي العنيف.

استسلم شمعان للصلح، مـــكرهًا لا بطل، فـــهو رغم وقاحته وسلاطة لسانه، لا يقوى على مجاراة هذا الريفي الثائر الذي يرد الإساءة باللكم.

(٢)

اندفع أمجد وسمير وشمعان، وهم يتمايلون مع إيقاع الموسيقى الصاخبة، ويشقون طريقهم عبر الطاولات المتناثرة في الصالة المطلة على النيل؛ساحبين خلفهم الفهيم. استقر بهم المقام عند طاولة في زاوية مظلمة حولها أربعة كراسي فضية اللون تتوسطهم منضدة دائرية الشكل عليها مجموعة من الكؤوس الفارغة، حال اعتدالهم في الجلوس، أسرع إليهم النادل سائلهم عن طلباتهم، ثم ما لبث أن عاد بقارورتين كبيرتين،فتح إحدهما وملأ الكؤوس الفارغة ثم قال مبتسمًا:

أتمرون بشيء آخر،.يا شباب.

أؤم له أمجد برأسه قائلًا:

لا شكرًا.

بدأت كؤوسهم تتقارع،وضحكاتهم تتعالى، وهم يتمايلون مع صخب الموسيقى الذي يصم الآذان.

أما الفهيم فبدأ يحس بشعور عارم ينز من كل مساماته..

أمجد:

أشرب يا رجل..بصحتك..

الفهيم:

ما هذه؟

سمير:

بيرة.

الفهيم:

تقصد خمر!

شمعان:

لا تقلق يا صاحبي،صدقني لذيذة ومنعشة، ولو أنك تذوقتها ستغيرن رأيك..

صمت وتوجس وأخذ يهمس في نفسه؛ ويدير التساؤلات في رأسه:

بيرة إذن هي خمر!

لكن ماذا يضير لو أني جرّبتها؟ يقولون أنها لذيذة ومنعشة.

لا لا ماذا أفعل لو صار تعاطيها اعتيادًا على أمر لم أكن أفكر في اغترافه قط؟!

لكن لا أعتقد أن مرة واحدة تجعلني مدمن لها.

لكنها حرام، حرام.

قال ذلك بصوت مسموع، فطفقوا يضحكون ويسخرون منه على أنه لا زال صبيًا يافعًا لا يقوى على أمور هي من شأن الناضجين.

عندها ثارت فيه روح محاولة إثبات الذات التي ترافق كلِ فتىً في سنه، فأقدم على ارتشاف الكأس الأولى،أحس بنعاس يسري في رأسه،فأراد أن يختبر متعة الخمر كما زعموا، فألحّ على الكأس الثانية التي ابتلع منها جرعة ضخمة جعلته يدفع بحزمة كبيرة من الهواء من داخل جوفه، أراد أن ينهض لكنه ترنح وسقط على الطاولة،وقد اتّسعت عيناه كمرآتين مدورتين قامــتا مقام الرأس كله، وبدا له وجه المكان أكثر صخبًا وإضاءة..

شاب أسمر، مجعد الشعر، خليع الهيئة، يتقيأ كلمات هابطة،بألحان باهتة، مع حركات مايعة وهو يقفز هنا وهناك، فوق مسرح متوهج الإضاءة، صاخب الموسيقى، وأمامه تزدحم مجموعة من الفتيات يرتدين ملابس لاصقة فاضحة، تبرز أجسامهن، وقد نشرن شعورهن بلا حياء، وتلطّخن بمجموع من المساحيق، وهن يلكن العلك،ويتمايلن في صفاقة وغنج، يثير أهل الهوى غريزة، والعقلاء شفقة، إن كان هنالك عقلاء، ويدور حولهن عدد من الفِتيان حلقي الرؤوس بأشكال غريبة

يرتدي الكثيرون منهم ملابس ينفر منها الرجال، وبلغ ببعضهم الغي مبلغًا بأن طوقوا رقابهم بسلاسل ومعاصمهم بأساور وأصابعهم بختم.

من لهؤلاء الآباء البلهاء الذين يلقون ببناتهم الكاسيات العاريات بين أذراع الفتيان، يلاصقوهن ويخاصروهن ويقبلوهن بين يدي شهواتهم ما شاءوا، لتعود إحداهن حاملة مع همها الأول همين آخرين، عارًا على رأسها، وجنينًا في أحشائها،إنهم يقودون على أنفسهم من حيث لا يشعرون ويمزقون أعراضهم بأيديهم وهم غافلون جاهلون، وفي ضلالهم يعمهون.

(٣)

أمسك بزجاجة الخمر، وقد حسم أمره بصوتٍ عالٍ وهو يصب لنفسه الكأس الثالثة:

اليوم خمر وغدًا أمر!

كان شخيره، يختلط بصوت احتكاك شفتيه فيكّون صريرًا حادًا كتساقط الحجارة في جدول ماء عميق.

ارتفعت الشمس، ولامست جسده خطوط ضوئها الشاردة من بين فرجات النوافذ، فشعر بالدم يذوب في عروقه، وقد استجابت أذنيه لسماع صوتٍ يقول:

ألا زلت نائمًا،هيّا انهض يا بني، لقد حان وقت الذهاب إلى المدرسة.

نهض متثاقلًا، وهو لم يكن سعيدًا ولا حزينًا، بل يجهل تمامًا تحديد مشاعره، يتذكر فقط أنهم ذهبوا به إلى ضفاف النيل للاحتفاءِ به في ليلة رأس السنة الميلادية الجديدة..

بدأت فكرة شرب الخمر تدور في رأسه، خاصة مع زوال عقدة الذنب التي ترافق الخروج من منظومة القيم والأخلاق، أعجبته تلك الجلسات الآثمة، فأخذ يخرج مع رفاقه زاعمًا أنه يذاكر دروسِهِ معهم، وهــو إلى

الليالي المجون الصاخبة ذاهبٌ وللخمر معاقرٌ، حتى ألفها وألفته وبدأ أمرها عاديًا بالنسبة إليه..

لكن بين الفينة والأخرى كانت تمر عليه خواطر الخوف التي توقد فيه بذرة الخير التي كثيرًا ما تتسع لتشمل النظرة الاجتماعية، وهي كيف لو أن قريبه الذي يقيم عنده اكتشف أمره وأبلغ والده؟!

لقد بدأت تضطرب أحواله بالانقطاع عن الصلاة تدريجيًا، ثم تبع ذلك بقية الواجبات الدينية والأخلاقية،مع استبدال الأصدقاء المحيطين به، بأولئك، لأنه لم يعد قادرًا على مرافقة الملتزمين دينيًا لإنعدام الاهتمامات المشتركة بينه وبينهم..

(٤)

نعيم أفندي معلم مخضرم، له آرائه الصارمة في التعاطي مع التعليم والمتعلمين في هذه الأيام، فهو يرى ضعف المدرسة في أداء دورها التربوي، مع الغياب المتعاظم لدور أولياء الأمور الذين في غالب أمرهم أصبحوا مجرد صرافات بنكية، الأمر الذي ترك لأولئك اليافعين الحبل على القارب، يسعون لتجريب كلّ شيء دون أي وعيٍ أو إدراكٍ منهم للمخاطر التي قد يتعرّضون لها، أو يتعرض لها أهلهم أو يتعرض لها المجتمع بأثره من جراء تلك الحماقات التي يقترفونها..

هذه الآراء أصبحت تسبب له الكثير من المتاعب مع طلابه، خاصة أنه ذو مواقف حادة مع أولئك الذين يتسكعون في الطرقات ويتعاطون المنكرات.

دخل الفصل حيّ الطلاب، ثم أشار عليهم بالجلوس، ثم التفت لكتب عنوان الدرس على السبورة، أصدر أحدهم صوتًا جعل الفصل يستغرق في الضحك..

التفت إليهم بوجه عابس وقال:

من الذي أصدر هذا الصوت؟

أشاروا إلى الفهيم..رفع طرف أنفه بتأفف ورمقه بنظرة نافذة من خلف نظارته ووجه إليه طرف سبابته وقال له:

إنهض يا جحش.

تصاعدت ضحكات زملائه الأوغاد داخل الفصل كأن هنالك تواطؤًا خفيًا ضده، وقف الفهيم يدمدم معترضًا ببعض الكلمات..

لماذا أصدرت هذا الصوت؟

لم يرد الفهيم، بل نظر نظرة تحدي، جعلت نعيم أفندي يتقدم نحوه،ويبسط كفه ليصفعه على خده، أمسك بيد المعلم متحديًا وهو يقول:

ماذا فعلت حتى تضربني؟

عندها أخذ رفاق السوء الذين في الخلف يهمهمون في حركة تهدف إلى إحداث فوضى خلاقة وإسقاط هيبة المعلم..تمالك نعيم أفندي نفسه وتراجع إلى الخلف وقال له:

اخرج واغرب عن وجهي.

خرج الفهيم وهو يصفع باب الفصل من خلفه بأقوى ما يستطيع،تعبيرًا عن الغيظ الذي تملّكه،وهو يعلم أنه لا سبيل له للخروج من هذه المدرسة المحكمة السور، والتي يجلس مديرها أمام مكتبه وهو يراقب

كل شاردة وواردة، والويل كل الويل لمن تسول له نفسه بأن يكون خارج الفصل أثناء الدوام..

ما أن خرج الفهيم من الفصل مغاضبًا، حتى وجد حضرة المدير متأهبًا لمناداته.المدير في منتصف العمر وفي منتصف سيرته الوظيفية تكسوه الهيبة والصرامة،اختير معلمًا مثاليًا؛وقلّده وزير التربية وسام العلم،فعاد إلي منزله يومها ليموت أمام المرآة كأنه يلتقط لنفسه الصورة الأخيرة..

وقف الفهيم أمام السيد المدير الذي نظر إليه وهو يزوم بين شفتيه وقال:

أهو أنت مرة أخرى، لابد أن نعيم أفندي أخرجك من فصله لعبثك..

ماذا جرى لك يا هذا بعد أن كنت طالبًا مثاليًا يشار إليه بالبنان،صرت وغدًا يثير الإشمئزاز؟

فرد الفهيم على الفور:

إنه يكرهني!

نهض المدير من كرسيه واستدار حتى وقف في مواجهته، تراجع الفهيم بحيث لا يكون في متناول يد المدير..

صاح به المدير:

هو لا يكرهك، بل يكره عبثك واستهتارك..

..ألا تخجل من نفسك معلم بهذا الوقار، كان يجب عليك أن تستفيد من علمه بدلًا من أن تثير له المشاكل في الفصل..

ثم نظر تجاه العصا المركونة إلى الحائط، لكنه تمالك نفسه، بعد أن دار بخاطره أمر حد وتحديد الضرب كمًا ونوعًا الذي أُبلِغ به يوم أمس،وأن استخدام هذه العصا بالذات يعد تجاوزًا قد يجر عليه الكثير من المتاعب بعد اليوم..

تمنى الفهيم لو أن حضرة المدير رفع العصا وهوى بها عليه مرة أو مرتين وينتهي الموضوع، لكن بدلًا من ذلك سمعه يقول له:

اذهب ولا تعد إلا ومعك ولي أمرك..

(٥)

المنزل من طابقين، جامع بين التقليد والحداثة،فسيح الغرف، يتميز رواقه بمساحته الواسعة وتصميمه الأنيق الجامع بين لون الخشب التقليدي ولوني الأبيض والأسود العصريين ، دون أن ننسى الإضاءة التي تمنحه مزيدًا من الفخامة والجمال، تنفرد الباحة الخارجية بطابع تقليدي وحديقة جميلة مكسوة بالنباتات والأزهار..

حاج بدر من كبار التجار في سوق المدينة، صنع مجده بجهد ومثابرة وهو يقضي جلّ نهاره في العمل، فالعمل عنده عبادة، فهو رجل سمح إذا باع وإذا اشترى وإذا قضى وإذا اقتضى،ولا يمر بمتجره صاحب حاجة إلا قضاها له، وهو يقول:

المال مال الله ونحن مستخلفون فيه..

يقيم حاج بدر مع زوجته في المنزل لوحدهما بعد أن لحقت ابنتهما الوحيدة التي كانت تسكن في الطابق العلوي؛ بزوجها الطبيب في بلاد المهجر.

أما الفهيم فمخصصة له غرفة منفصلة بكامل ملحقاتها من حمام وغيره.

خرج من الحمام وهو يجـــفف شعر رأسه بالمـــــنشفة ويترنم بأغنية صاخبة حتى ولج باب غرفته، ليجد حاج بدر جالسًا يتصفح كتابًا من الكتب التي كانت على المنضدة.

توقف عن الغناء وتلعثم في التحية،تبسم الحاج في وجهه وقال له بصوت وقور:

معذرة يا بني لقد اقتحمت عليك غرفتك،حسبتك موجودًا فوددت الاطمئنان عليك ونقل تحيات والدك الذي تحدث إليّ عبر الهاتف قبل قليل، وأحسبه قد اتّصل بك في هاتفك أيضا.

ازدرد الفهيم ريقه، وأخفى ارتباكه، ساندًا جسمه النحيل على أطراف المنضدة،وقال:

العفو يا عمي أنت تشرّفني بالحضور في أي وقت،ولك شكري على نقلك ليّ تحيات أبي..

نهض الحاج من جلسه ،ثم ربّت علي كتف الفهيم قائلًا:

جِد في دروسك يا بني وانتبه لنفسك، أريدك أن تشرّفني أمام والدك الذي ائتمنني عليك.

وهو خارج التفت إليه وقال:

بالمناسبة لقد تحدثت إلى مدير المدرسة اليوم،فهو يحثك على المواظبة والاجتهاد والابتعاد عن رفاق السوء.

هذه الكلمات التي خرقت أذنيه جعلته غارق في بحر الظنون الذي أخذ يتقاذفه يمنة ويسرة .

يا تري هل شك في أمر تغيبي عن المدرسة اليوم وإدعائي بأني مصدوع؟

لا لا لا أعتقد ذلك، لقد بادرني هو نفسه بأن لا أخرج إذا لم أقوى علي الذهاب،عندما راني مُجهدًا.

إذن اتّصل به المدير ليبلغه بعذر غيابي،فطلبه المدير في مكتبه وأبلغه ما كان من أمري يوم أمس.

نعم نعم هو كذلك،فهذا واضح في ما قاله لي قبل قليل.

لكن يا ترى هل انتهي الأمر بينه بين المدير،أم وصل إلى أبي؟

لا لا لا أحسب أن الأمر قد وصل إلى أبي.

لكن ما هو سر المكالمة التي جرت بينه وبين أبي؟

بالطبع مكالمة عادية والدليل على ذلك أنه نقل إلىّ تحياته دون أن يتطرّق إلى شيء آخر.

لكنه قال إن أبي اتّصل بي في هاتفي.

ثم مد يده لرفع الهاتف، فإذا بالهاتف يرن،فارتعشت يداه وأصّفر وجهه، وأيقن أنا الطالب هو والده، فأخذ نفسًا عميقًا واستجمع قواه ورفع الهاتف فإذا بالرقم لأمجد.

فأعاد الهاتف إلى موضعه دون أن يرد وقد تنفس الصعداء،لكن ما لبث أن عاود الهاتف الرنين مرة أخرى وثالثة من نفس الرقم، وهو معرض عن الرد،ثم أغلقه بعد ذلك واستلقي على سريره متقلب في مراقد الأرق ومطارد بشبح الظنون حتى حلق طائر الكري فوق أجفانه فاغمضها..

(٦)

وقف في الصف الخلفي، محاولًا تفادي نظرات نعيم أفندي، المعلم المناوب في ذلك اليوم،انتهى الطابور ودخل الطلاب الفصول، صاح به أحد الطلاب:

الفهيم برير حاج حمد..

نعم!

مطلوب حضورك في مكتب المدير.

المدير جالس على مكتبه ونعيم أفندي جالس على يمينه،دخل الفهيم وألقى السلام بصوت مضطرب وهو مطأطأ الرأس بين يدي المدير الذي قال له:

يا ابني ،لقد تغيّرت كثيرًا ونصحنا لك أكثر،فدعك مما أنت فيه وانتبه لنفسك ولا تخيب أمل أبيك فيك..

ثم أردف قائلًا:

هيّا اعتذر من نعيم أفندي وأذهب إلى فصلك واحذر أن تكرر فعلتك هذه مرة أخرى..

اعتذر الفهيم من أستاذه، وذهب إلى فصله، واستمر منعزلًا طوال

اليوم،دون أن يجالس أحدًا أو يتحدث إلى أحد،رغم إلحاح رفاقه الجدد ومحاولاتهم المتكررة لإخراجه من هذه العزلة..

ألقى بجسده على سريره فور وصوله من المدرسة، وغطّ في نوم عميق لم يفق منه إلا عند السابعة مساءً، انغمس تحت مرش الماء الدافيء فازال الفتور بوابل من الماء ، ثم تناول غداءه، ثم جلس إلى مكتبه يؤدي واجباته المدرسية التي تراكمت في أيامه الأخيرة بعد أن ترجّل عن حصان الجد وركب حمار الهزل،رنّ الهاتف، نظر إلى الرقم فوجده رقم مجهول، لم يرد عليه، عاود المتصل الاتصال مرة أخرى، عندها عمد إلى إغلاق الهاتف تمامًا..

انتهى من واجباته واستلقي على سريره، متفكرًا فيما قاله له حاج بدر يوم أمس وما قاله له المدير اليوم، ثم طفق يتساءل:

هل ما ذهبا إليه هو بسبب علاقتي مع أمجد وسمير وشمعان؟

إن كان كذلك عليّ أن أعيد النظر في هذه العلاقة..

لا لا لا أعتقد أن الذنب ذنبهم، إن كانوا هم من طلبوا صداقتي فأنا من وافق عليها، وأنا لا أخفي سعادتي بهذه الصداقة،بل ولا أرى تعارضًا بينها وبين أداء واجباتي...

نعم نعم، إذن فالتقـــصير مني لا من غيري، فعليّ أن أسوّي الأمور

بصورة عادلة حتى لا أخسر أصدقائي.

ثم مد يده وفتح المحمول، فإذا به يستقبل رسالة في الواتساب، فتح الرسالة، كانت عبارة عن صور إباحية، ازدرد ريقه، وشرد بذهنه وبينما هو كذلك دخلت رسالة أخرى مكتوبة فيها(ما رأيك في هذه المزز) الفتيات.

تفحص رقم الرسائل فوجده هو نفسه رقم المكالمات التي جرت قبل قليل، فأجرى اتصالًا بصاحب الرقم:

ألو..

أمجد:

يا مرحبا بك يا صديقي.

الفهيم:

أمجد؟!

قهقه أمجد ثم قال:

يبدو أن صور قد أعجبتك وأثارت فضولك!

صمت الفهيم قليلًا ثم قال بعد أن أومأ إليه شيطان الجن بإشارات الإيجاب:

عجيبة.

أمجد:

حسنًا، موعدنا غدًا عند سمير، سنسهر ونشاهد فيلمًا رائعًا، اتّفقنا؟.

الفيهم:

هو كذلك، اتّفقنا.

أمجد:

سلام يا صديقي.

أغلق الخط ، وتمدد على السرير محملقًا في السقف تارة ومحدق في هذه الصور الفاتنة تارة أخرى.

كانت صورة إحداهن لا تغادر رأسه، تأتيه في موجات من الحلم وتضرب شواطئ تفكيره، وما زال كذلك حتى حاصرته جيوش النعاس وسلّمته إلى محابس الكرى.

(٧)

رواد المقهى هائمون فوق سحابة من النشوة الفارغة، تبدو عليهم علامة الشرود والهذيان، توجس خيفة لكنه تمالك نفسه وجلس، ثم طلب كوبًا من الشاي، كان يجلس إلى المنضدة التي بجواره شابان يتصفحان هاتفيهما المحمولين ويبتسمان بصورة أثارت فضوله وجعلته يشرئب بعنقه ليري ماذا لديهما.فلما أحسا به تعمدا تميل الهاتف ناحيته،الأمر الذي مكّنه من رؤية الصور الإباحية التي كانت يتصفحانها، فاقترب منهما أكثر، عندها رحبا به وطفقا يعرضان عليه المزيد من تلك الصور حتى هام بها، ثم قال له أحدهما:

هل قضيت في حياتك ليلة مع بائعة هوى؟

فأومأ برأسه نافيًا وهو مشدوه بالنظر إلى صورة فاتنة في غاية الإثارة.

الشاب الثاني:

يبدو أن صاحبة الصورة قد شغفتك حبًا؟

هو:

جدًا.

الشاب:

لك أن تمنح نفسك لذة العشق ولو مرة واحدة،ما رأيك أن تقضي معها ليلة أو ليلتين إن شئت؟

فرك راحتي يديه طفقت شرارات الشهوة من عينيه المنبلجتين، ازدرد ريقه وقال:

نعم أريد..أين هي؟ وكيف السبيل إليها؟!

الشاب الأول:

حسنا،لا تتعجل،غدًا مساءً عليك أن تذهب إلى هذا المنزل.

(أعطياه عنوان المنزل بالكامل).

مالت الشمس نحو مغيبها، سار موليًا وجهه موقف السيارات التي ستقّله إلى هناك وقلبه شطر بائعة الهوى حالمًا بالوضعية التي سيضاجعها بها، إنها فرصة يكتشف فيها حياة جديدة لم يعرفها إلا في عقله الباطني أو في أحلامه.

ترجّل في شارع العنوان المحدد الذي أفضى به إلى شارع دائب الحركة، جال فيه بعينيه،لمح بعض الفتيات كاشفات صدورهن الناهدة وسيقانهن الناعمة، انتعش وشعر بقشعريرة لذيذة سرت في جسده مسرى الدم ، تخيّل بضاضة جسدها اللين وهي التي لن يدعها تبرح السرير طوال ليلتين،فكر من أين يبدأ مداعبتها،استنبط أفكارًا من الصور الإباحية

التي كانت تدور بين كفي الشابي،وجد نفسه أمام منزل متواضع من الطوب الأحمر في زقاق ضيق تراصت فيه منازل بطراز فقير،ازدرد ريقه، وكاد يلتقم اللذة ،وقف أمام باب المنزل الموارب،تسلقت عيناه أعلى الباب،ثم ربط جأشه وقرعه فأتاه صوت أجش لم يميزه لامرأة أم لرجل قائلًا له:

اُدخل الباب مفتوح..

دخل وهو قلق من السكون المخيم علي المكان،تلفّت باحثًا عن مصدر الصوت وهو يقول:

سلام أهل الدار..

فباغته صرخة مولولة رجّت السكون: حرامي، حرامي..

فدلف من خلفه شابان قويان فما أن رآهما حتي رفع يديه صائحًا:

أنا لست لصًا.

لكن هيهات لقد لكمه أحدهما لكمة جعلته يفيق من نومه مذعورًا.

(٨)

حركة الثراء بمتوالية هندسية في مجتمع المدينة دون معرفة أسباب ظاهرة لثراء أولئك المتبطلون والإنتهازيون، عززت من فكرة الحلم الذي يراوده بالخروج من دائرة ذلك الحي الشعبي البائس إلى دائرة السكن في بناية فاخرة في أرقى أحياء العاصمة، وامتلاك مجموعة من السيارات الفارهة مع إيداع أرصدة محترمة في البنوك المحلية والعالمية،والتمتع والانغماس في ملذات الحياة البريئة منها والآثمة،كل ذلك جعله فريسة سهلة لأحد ممتهني تلك التجارة الصامتة التي لا تقول شيئًا أو لا تكاد تقول شيئًا، وإن نطقت فإنما تنطق همسًا لا يكاد يُسمع،وتنطقه في ظرف وفي رقة وتلطف وهي على هذا كله بل لهذا كله تغلّ على أهلها الثراء الضخم والمال الكثير الآثم..

أخرج شمعان من حقيبته لفافات من مخدر الهيروين،الذي كان يقوم بتوزيعها على بعض زملائه في المدرسة وتجمعات الشباب في نواحي المدينة، فهو يعمل لحساب أحد أولئك الذين يحترفون هذا المجال القاتل مقابل فائدة مادية وجرعة مجانية..

أفرغ سمير زجاجة البيرة في الــكؤوس التي كانت أمــامهم على الطاولة وهم جلوس على الأريكة التي من خلفها وأبصارهم تدور مع أحداث الفيلم الإباحي الجارية علي شاشة العرض المثبتة على جدار الصالون.

تم توزيع الكؤوس ولفافات الهيروين.

رفض الفهيم اللفافة، شرب كأسه الأول بشراهة دفعة واحدة، وطلب كأس أخر، أخذ يشربه على مهل هذه المرة كأنه يتلذذ بكل رشفة منه، وبينما هو كذلك مستغرق في المشاهدة وعيناه تلوذان بكتفي تلك الفاتنة العاريين وساحل صدرها الهائج وهي تمشي بغنج وتضحك بفجور؛ تمكن شمعان من دس حبة هيروين في الكأس.

تشوش نظره فجأة ، شعر بوخز في أطراف أصابعه وثار غثيان في معدته وأخذت جميع أطرافه ترتعش، توتر جسده، كأن تيار كهربي يسري فيه، وكأن آلاف من الفولتات تجتاز دماغه.، ثم ما لبث أن بدأ يفقد وعيه شيئًا فشيئًا وكان آخر ما سمعه هو كلمات أمجد التي أصر فيها على نقله إلى المستشفي رغم تردد سمير وشمعان.

(٩)

الساعة الحادة عشر والنصف قبيل منتصف الليل، الفهيم لم يعد بعد،حاج بدر في غاية القلق، يتحرك جيئةً وذهابًا في باحة المنزل وهو يحدث نفسه:

يا ترى أين ذهب هذا الولد؟!!

لقد تركناه في المنزل عند خروجنا، وها نحن قد عدنا قبل أكثر من ساعة.

ترى ذهب إلى أحد أصدقائه؟!

..ربما لكنه لم يخبرني بذلك.

اتصال هاتفي:

ألو..

المتصل:

ألو،حاج بدر؟

حاج بدر:

نعم،حاج بدر.

يتحدث إليك الطبيب سليم.

يزداد توتر حاج بدر ويصيح بالطبيب:

مرحبًا أيّها الطبيب ،لابد أن الفهيم بطرفكم،أليس كذلك؟

الطبيب:

نعم،هو كذلك،أأنت والده؟

حاج بدر:

في مقام والده.

الطبيب:

حسنًا،نرجو التكريم بحضورك،وها هو العنوان..(مستشفى السلام _شارع الحرية).

الفهيم في غرفة الإنعاش،حاج بدر يدخل على الطبيب في مكتبه في حالة من القلق والتوتر الشديدين:

ما الذي جرى أيّها الطبيب؟

الطبيب:

خير خير،اهدأ يا حاج،تفضّل بالجلوس.

حاج بدر:

كيف لي أن أهدأ،ما الذي أصاب الولد؟

الطبيب:

الحقيقة (الفهيم) مصاب بحالة إغماء، لكن الحمد لله، لقد أجرينا له اللازم، والآن حالته مستقرة، وإن شاء الله سيفيق ويكون بخير.

حاج بدر هدأ قليلًا وقد انتبه للشباب الثلاثة الذي كانوا في معية الطبيب ، وقبل أن يلقي عليهم التحية أشار إليهم الطبيب وقال لحاج بدر:

هؤلاء هم الشباب الذين أسعفوا الفهيم.

حاج بدر:

أأنتم أصدقاؤه؟

أمجد:

نعم،يا حاج.

حاج بدر:

شكرا لكم،يا أبنائي على حسن صنيعكم.

سمير:

العفو يا حاج..

شمعان:

طيب نحن نستأذن..يا حاج ، وسوف نأتي غدًا صباحًا إن شاء الله لنطمئن علي الفهيم.

قال الطيب مبتسمًا وهو موجّهً كلامه للشباب:

لا لا يا شباب،أرجو أن تنتظروا معنا قليلًا حتى يفيق أخوكم الفهيم وتطمئنون عليه،هذا هو الواجب،أليس كذلك؟

عندها عم التوتر المكان بأثره، وزاد قلق حاج بدر وأخذت تتقاذفه الظنون وترتسم على وجهه التساؤلات حول ما يدور حوله من غموض ولكن تمالك نفسه إلى حين.

في ظل هذا الجو المشحون بالتوتر دخلت الممرضة لتقول:

فاق الفهيم..

هرع الجميع إلى غرفة الإنعاش.

نظر حاج بدر إلى الفهيم بنظرة عتاب واشفاق وقال العبرة تحنقه وقد سالت على خده دمعة خضّبت لحيته:

حمدًا لله على سلامتك.

رد الفهيم بصوت متلعثم ورأس مطأطأ:

الله يسلمك يا عمي..

الطبيب:

الحمد لله ،الفهيم الآن بخير ، هيّا ندعه يرتاح قليلًا ريثما نتحدث نحن في المكتب،تفضل يا حاج،تفضلوا يا شباب.

في المكتب قال الطبيب لحاج بدر:

حقيقة يا حاج بدر،حالة الفهيم سببها جرعة مخدر زائدة، ثم التفت إلى الشباب قال:

أليس كذلك؟

حاج بدر يفز من صمته وهو يصرخ ويحوقل:

ماذا؟

الشباب وما أدراك ما الشباب لقد جحظت عيونهم وخرست ألسنتهم وأحمرت وجوههم،وتطأطأت رءوسهم، والحاج يرمقهم بنظرات غاضبة تشوبها الشفقة والتحسر.

الطبيب:

أري يا شباب أن تعتذروا من حاج بدر ونصلح الأمر هنا، إن لم يكن لحاج بدر رأي آخر، وأرجو أن لا تكرروا هذا الأمر مرة أخرى،فأنتم شباب والمستقبل أمامكم، انتبهوا لأنفسكم وابتعدوا عن المخاطر والمتاعب..

نهضوا ثلاثتهم مقبلين يدي حاج بدر ومعتذرين منه، ثم انصرفوا،بعد أن أسرف الحاج في نصحهم ووعظهم .

(١٠)

الليل مرآة يقلّب فيها المرء ناظريه ليجد نفسه على صفحتها كما خلقه الله، إنساناً ضعيفاً، محتاجاً إليه في كل حين، الليل آية من آيات الله التي تحمل بين طيّاتها بلسم الشفاء للقلوب المجروحة بلوعة البعد عنه سبحانه،الليل هو قلب وروح ودمعة..

الليل يخطو خطواته الأخيرة ، والصمت من حوله مساحة من ظلام شاسعة لا يخدشها إلا صوتٌ هامس يقول:

أما كان أجدى أن لا تقترن بأولئك الذين زينوا لك الباطل وأوهموك بأنك بطل لا تنقصك سوى تجربة الشجاعة؟..

أما كان أنفع لو أنك سمعت نصائح عمك؟ وكلمات أساتذتك الذين دائمًا ما يقولون لك: لا تكن ضحيةً لرفاق السوء..

أما كان من الأسلم لو أنك استقبلت من أمرك ما استدبرت وأعملت عقلك بدلًا من شهوتك وقدّمت كلام عمك المليء بالشفقة والعطف على كلام زملاء السوء وأرباب الفكر الدنيء؟

مضى الليل إلا أقله ولم يبقى إلا أن تفرج لمة الظلام عن جبين الفجر، ما زال ساهرًا يجتر آلام الـحسرة والندم ويذرف دموع الأسى

والأسف، ويُمني نفسه نسيان ما جرى، حتى إنبلج نور الصباح.

سمع آذان الصبح يأتيه من جامع الحي،فتوجه إلى هناك لقضاء فريضة الفجر بعد طول غياب،كان المصلون لا يزالون يدخلون المسجد، وجد نفسه يتمتع بمراقبتهم،لوّح لهم وحياهم، فردوا عليه التحية بأحسن منها..

ارتفعت الشمس وقد عمت أشعتها الذهبية أنحاء الفضاء، جلس حاج بدر في باحة المنزل وهو مستغرق في كيفية تبلغ والد الفهيم بما جرى ليلة أمس، وما زال كذلك حتى حسم أمره وأجرى اتصالًا:

ألو..سلام عليكم حاج برير.

حاج برير:

عليكم السلام..حاج بدر،عساكم بخير.

حاج بدر:

الحمد للّه ، بخير،كيف حالكم أنتم؟

انتاب حاج برير سعالٌ شديد ثم واصل الحديث:

الحمد للّه طيبين.

حاج بدر:

صوتك ضعيف وأسمعك تسعل..عساك ما مريض، يا حاج؟

حاج برير:

الحقيقة أحس ببعض الأعراض..فلو ربنا سهل سأكون معكم يوم غدًا إن شاء الله..لأجري بعض الفحوصات بإذن الله..

حاج بدر يتراجع من عن قراره الحاسم بشأن الفهيم ويقول بدلًا عنه:

لا بأس عليك يا حاج،مرحبًا بك، ألف مرحب، تصل بالسلامة إن شاء الله، مع خالص التحايا للأسرة الكريمة.

انهى حديثه مع حاج برير ودخل على الفهيم في غرفته فوجده جالسًا على الأرض مبتهلًا إلى الله جل جلال.

السلام عليكم .

الفهيم:

وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته..تفضل يا عمي.

بعد سكون خيم على الغرفة لأكثر من خمس دقائق..كسر حاج بدر حاجز الصمت وقال:

هل لك أن تخبرني يا ابني ، ما الذي أصابك بالأمس؟!

ازدرد الفهيم ريقه وأخفى إرتباكه وضمت عبارته دفقا من الكذب مشوبًا بشيء من الحقيقة، وهو يقول:

أنهم بعد أن فرغوا من مذاكرتهم، تناولوا شيء من المكسرات وأكواب من الحليب الطازج..

حاج بدر:

أتقصد أن ما قلته هو حقيقة ما جرى؟

خفض الفهيم رأسه وحدق في الأرض وهو يعلم أن في غمرة الكذب تستمر الحقيقة، ثم قال بصوت ندم وانكسار:

أنا آسف يا عمي.

حاج بدر:

الأمر ليس أمر أسف يا ابني ، الأمر أنك احرجتني مع أبيك الذي استأمنني عليك.

قال الفهيم والعبرة تخنقه:

سامحني يا عمي،أرجو أن تغفر لي زلّتي.

حاج بدر:

فليسامحنا الله جميعًا،عمومًا لقد قص عليّ الطبيب كل شيء.

وتحدثت إلى أبيك قبل قليل، إنه سيأتي غدًا إن شاء الله.

(١١)

حاج بدر يلوّح بكف الوداع وهو في منزلة ما بين المنزلتين، منزلة الخوف على مستقبل الابن الذي كان يحتم عليه إخبار والده بحقيقة الأمر حتى ينتبه لابنه، ومنزلة الإشفاق على الأب من معرفة الحقيقة وهو في حالة من الإعياء لا تتحمل أي نوع من حماقات ابنه التي واحدة منها تكفي لمضاعفة آلامه أكثر مما هو فيه من آلام.

تحرّك البص نحو القرية، حاج برير مستغرقٌ في التسبيح كعادته في السفر، والفهيم يسترق النظر إليه ويحدث نفسه:

كيف تسنى لي أن أخذله وهو الذي نشّأني منشأً سليمًا ورباني من مال حلال اكتسبه من عرق جبينه، ووفر لي كل سبل العيش المريح.

وا أسفاه لقد ظلمته وظلمت نفسي كثيرًا.

كيف أنه تمنى بأن أُكمل تعليمي حتى أكون علمًا من أعلام الوطن.

ليتني اجتهدت في دروسي وسرت في طريقي وما تخلفت عامًا عن أبناء دفعتي الذين هاهم قد التحقوا بالجامعات، وبقيت وحدي اتجرّع كأس الحسرة والندم..

آه لو أنه ضربني أو زجرني أو عاتبني ولو بنظرة ،لكنه لم يفعل.

يا إلهي،يكاد رأسي ينفجر.

والده:

أتقول شيئًا يا بني.

الفهيم:

لا لا يا أبي،يبدو أني أتحدث إلى نفسي.

حاول النوم حتى لا يتكلم كالمجنون، وضع رأسه على المقعد الأمامي، أغمض عينيه، فمع هدهدة البص حالفه النوم،فنظر إليه والده نظرة جعلته يحدث نفسه:

للّه درك يا بني، سامحني لقد دبت الأسقام في جسدي، ولم أعد أقوى على العمل، والمال مالك وأنت وريثه الوحيد،فاسمح لي أن أضعك في مكانة رجل فوق الأربعين، كامل النضج،مستقيم السلوك،قادر على تحمل المسئولية،ولأنت كذلك إن شاء اللّه..

(١٢)

انتقل حاج برير إلى رحمة الله وأورث ابنه عداءً خفيًا مع حاج الزين.عداءٌ يسفر عنه وجه الأخير في كل مجلس يصادف فيه الفيهم، الأمر الذي جعل الفهيم تنتابه حالة من الكره لذلك الرجل الذي لولا شيبته لكان له معه شأن أخر، بل عزم على تفادي المجلس الذي يكون فيه حاج الزين، وإن جمعهما القدر في مجلس ما، كان لا يكترث كثيرًا ولا يرد على لأي نوع من الإهانة التي كانت تأتيه من ذلك الكهل، الأمر الذي جعل أهل القرية يحمدون له ذلك بل ويقدّرونه رغم انتكاسته وعودته لتعاطي الخمر مرة أخرى، نعم هو يشرب الخمر ويعربد لكن لا يظلم أحدًا بل كريمًا هاشًا باشًا في وجه كل كبير وصغير متى ما جلس في دكانه الذي ظل محافظًا عليه رغم العثرات المتكررة ، وكل ذلك كان يزيد في غيظ حاج الزين يوم بعد يوم...

ضاق الفهيم ذرعًا بحاج الزين، وتفاديًا للاصطدام معه مرة بعد مرة، قرر تحويل دكانه إلى مقهى، وقد كان،وأخذ يبدأ نشاطه في مقهاه في السادسة صباحًا من كل يوم، وهو يعلو بدندنته ويعانق بحنجرته الخشنة صوت قدامى الفنانين الآتي من زمن المذياع تارة وصوت فناني

الألفية الثالثة الآتي من عالم الفضائيات تارة أخـــرى، وهو مشـــحون بطاقة من الأمل الممزوج ببهجة اليوم الجديد..

يبدأ برش الماء الذي ينصب بقطراته مصيدة لنسمات الصباح التي يعبقها بخور العنبر المنتشر في أرجاء المكان، ثم يتفنن في رص الكراسي حول المناضد، وهو مهتم بحركة الشارع في تلك الساعة المبكرة، يترصد الطريق، ويتبادل التحية مع المارة الذين يعرفهم بالاسم، ينتظر اللحظة التي يتوافد فيها زبائن الساعات المبكرة من سائقي الشحنات وسيارات الركاب الذين يقصدون المدينة في كل صباح،وهم ينتشرون في صخب يتبادلون معه الطرائف، التي بعضها لطيف وبعضها خشن يتضمن بعض الألفاظ الجريئة (الجنسية) التي يستمع لها التلاميذ وهي تخترق أسماعهم وهم في طريقهم إلى مدارسهم، فتختلط متعة اكتشاف الجديد ببراءة الطفولة..

يدور الفهيم بين الكراسي والمناضد برشاقة وخفة، ويبدو أن اعتياده على العمل أكسبه مرونة، وبث في جسده قوة حالت دون أن يفلت منه طلب من الطلبات المتراكمة، لم يكن مهتما بوجود صبي يساعده بل ربما أحب ما يقوم به لدرجة كراهية المشاركة له في ذلك، لقد اكتفي

فقط بوجود (سيد) ذلك الشـــاب الطويل النحيل قليل الكلام الذي يعد المشروبات المختلفة من شاي وقهوة وغير ذلك..

تدور الشمس في السماء، وعندما تغيب، ينقلب الفهيم إلى كائن آخر،و يتبدل معه المقهى إلى حانة، يبدأ فيها همس الرواد يعلو شيئًا فشيئًا، فيتيقن المارة أن (الخمر) انطلقت من عقالها، وهي تصول بين أيدي عشاقها، ورائحة التبغ تطوف بعيدًا،وصناديق البيرة الفارقة تكشف عن علية قوم يرتادون المكان، لا يعرف أن الحفلة اليومية اوشكت على النهاية إلا عندما تصل عقارب الساعة إلى منتصف الليل،وتقل الضجة وتبدأ عمليات الإغلاق..

مضت حياة الفهيم اليومية على المنوال نفسه أشهر وسنوات، لايكترث لنصح أهل القرية المقتسمون ما بين من يرى أن هذا الأمر لا يعنيهم في شيء، وأن الفهيم كفرد من أهل القرية لم يقصر في واجبه،أما ما يجرى في مقهاه بعد مغيب الشمس هو شأن شخصي وأنهم إن لزم الأمر ينصحونه ويطلبون له الهداية، أما النصف الآخر من أهل القرية الذين يتزعمهم حاج الزين المعروف بمقته للفهيم، كانوا يهددونه ويتوعدنه بين الحين والآخر بل وصل بهم الأمر أن شكوه أكثر من مرة للسلطات دون جدوى، فكلما يأتي رئيس المخفر بعسعسه إلى المقهى ممنيًا نفسه

بأن يجد ما يدين به صاحبه لم يفلح، لعل الفهيم عرف كيف يتقن الخروج مما يرسمه له غرماؤه فيردهم خائبين لــدرجة أن المساعد (كدوس)توعدهم بالحبس إن هم أتوه ببلاغ كاذب مرة أخرى..

(١٣)

بعد أن سكن الخلق، وألقى الكرى رداءه على وجه الأرض؛ نهضت من فراشها وقد ألمت بنفسها في تلك الساعة عاطفة غريبة متنوعة الألوان،مختلفة الأحوال، كأنما هي مزيج من الحب والخوف،والسرور والحزن، والأمل واليأس، فكانت تبتسم مرة حتى تلمع ثناياها، وتبكي أخرى حتى يبتل ثوبها، ولا تعلم ما الذي أضحكها ولا ما الذي أبكاها، ولم تزل على حالها تلك حتى حلق طائر الكرى فوق أجفانها هي الأخرى، فاضطجعت في مرقدها، وأسلمت نفسها إلى خالقها.

ترك مضجعه بعد أن لاح نور الصباح وخرج مبكرًا إلى مشرع الماء حيث رأها وقد استقر في نفسه العزم على ألا يفر من وجه أم نفلين إذا رآها، وأن يتقدم نحوها فيحييها ويحادثها، وينفض لها جملة حاله ولم ينشب أن رآها مقبلة عليه وجهًا لوجه، فلم ير سبيلًا للفرار من بين يديها، فحياها فحيته، ثم أغضى فأغضت، فلم ير بدًا من المخاطرة بكلمة يخرج بها من هذا الصمت المعيب، وأراد أن يقول شيئًا فسمعها تتكلم، فاستفاق وحمد الله على أن كفاه تلك المئونة، فقالت:

أراك شاحب اللون، خائر النفس، فأخشى أنك تعالج مرضًا.

لاذ بالصمت برهة وقد انقّسمت نفسه بين السرور والحزن ، أما السرور فلقد رآها فرحة مغتبطة عندما رأته، تغني عيناها أنشودة الحب وهي تلاعب ضفائرها وتمشي مشية الخيلاء بين رفيقاتها كلما استرقت النظر إليه، وأما الحزن فلأنه يخاف أن يسبقه القدر إلي أمه فيحول بينه وبينها فيصبحُ في هذه الحياة غريبًا منفردًا، لا يجد بين هذه القلوب الخافقة حوله قلبًا يحزن لحزنه، ولا بين هذه العيون الناظرة إليه عينًا تبكي لبكائه؛ وهنا ذرفت من عينه دمعة دون أن يشعر،كادت أن تبكي لها أم نفلين ولكنها لم تفعل ذلك حياءً وخجلًا، وألقت عليه نظرة عطف ورحمة من حيث لا يشعر، حتى إذا التفت إليها استردت نظرتها وألقتها على الأرض وقد لاذت بالصمت هي الأخرى.

ثم ما لبث أن استدرك نفسه وقال لها متلعثمًا:

عفوا يا عزيزتي..كنت قد شردت بذهني قليلًا..

ثم أردف قائلًا:

الحمد لله أنا بخير، فقط أحس ببعض الإرهاق،شكرًا لك على سؤالك عني.

عندها استجمعت قواها المبعثرة وقالت له وهي مطرقة الرأس:

سلمّك الله وعافاك من كل رهق، كما أشكر لك أنا أيضا مساعدتك لي في سقى الأغنام يوم أمس.

الفهيم:

العفو هذا واجب.

أم نفلين:

تسلم.

الفهيم:

وتسلمي أنت أيضا..

وبعد أن مشت جذوة النهار في فحمة الليل، وأوى إلى فراشه وقد علم أن الذي قام بنفسه منذ يوم أمس ليس الهذيان ولا الجنون، ولا الوسواس ولا حرارة الحمى كما كان يظن، وإنما هو الحب!

ولم يزل يراوح بين هذه الفكرة ويستدني بعضًا منها ويذود بعضًاحتى صحت عزيمته على أن يكتب كتابًا إلى أم نفلين، يقص عليها فيه قصته وما آل إليه أمره، ثم يضع أمره بين يديها ليرى ماذا تصنع.

(١٤)

بدأت أشعة الشمس بالتسلل رويدًا رويدًا حتى ألصقت بياضها على وجه الحياة وتلونت معالم القرية بكل ألوانها الزاهية بعد أن كان قد طمسها الظلام وغطّاها بسواده، فأتت الشمس لتزيح كل تلك العتمة بأشعتها الذهبية البديعة وكأنها تطبع على جبين الكون قبلة الحياة،ومع بروز الشمس بدأت الحياة تدب في القرية، وبدأ الناس يظهرون هنا وهناك وهم يستقبلون يوم جديد.

حاج الزين رجل في منتصف عقده السادس، متوسط الطول والحجم استلقت على وجه بعض التجاعيد، ضحك الشيب برأسه وخالط الكثير من لحيته لكن لا زال يحتفظ بشيء من الحيوية والنشاط. والحق أنه بثيابه البيضاء الفضفاضة وعباءته الرمادية وعمامته الخضراء، وحذائه الذي لم تخرج أيدي صناع المراكب أجود منه، كان صورة مجسمة للتعالي والغطرسة.

عبر إلى الناحية الأخرى من الشارع، توقف أمام باب دكانه الخشبي العتيد، أخرج من جيبه جملة من المفاتيح ، تفحصها جيدا،ثم أفرد أحدها وفتح الباب الخشبي العتيد وشده بحبل على ركيزة من ركائز

السقيفة المنصوبة أمام الدكان، رتب البضاعة التي أحضرت له من المدينة ليلة أمس بوضع كل منها في موضعه، ومن ثم نفضت الغبار العالق هنا وهنـــاك، ثم أخــرج سرير خــشبي صغير في فــناء الدكان وجلس عليه وهو يحرك مؤشر مذياعه الصغير ليسمع الأخبار..

حديس:

السلام عليكم يا عمي الزين.

حاج الزين:

وعليكم السلام، يا البوم، خبرك؟

أطلق حديس ضحكته الغريبة التي إطلاقها يعني نقل خبرٍ ما.

صمت كأنه يريد أن يعطي كلماته أهمية كبرى، ثم انفجرت كلماته مثيرة للفضول غير متوقعة يشوبها الصدق:

الفهيم خطب أم نفلين.

حاج الزين:

ماذا؟

ثم قال وقد انقبضت أسارير وجهه هامسًا في نفسه:

ذلك العربيد السكير!

حديس:

أتقول شيئًا يا عمي الحاج؟

حاج الزين:

لا لا،لم أقل شيئًا..لا عليك أنت يا البوم ،هـــيّا اذهب إلى حال سبيلك.

قهقه حديس ثانية وانصرف، وحاج الزين في حيرة من أمره يحدث نفسه:

أمعقول هذا؟

أجُن العبيد؟

ألم يجد غير هذا العربيد السكير حتى يزوجه ابنته؟!

تناسى، أن ابنه المبروك الذي نال قسطًا من التعليم وعُين معلمًا في المرحلة الثانوية، تخلى عن ذات أم نفلين ورفض الزواج منها وهي التي كانت خطيبته منذ الطفولة، والجميع يعرف ويردد ذلك "أم نفلين للمبروك والمبروك للأم نفلين".

(١٥)

انتصف النهار وأخذت الشمس مكانها في كبد السماء، أغلق حاج الزين الدكان، وذهب إلى بيت أخيه العبيد..

العبيد متكئ على سرير خشبي صغير تحت شجرة السدر الوارفة التي تتوسط صحن الدار ، وجالسة إلى جواره زوجته بت التوم وهي تعد قهوة الظهيرة التي اعتاد العبيد على شربها في وقت القيلولة..

حاج الزين يقرع الباب ويلقي السلام:

السلام عليكم.

العبيد:

وعليكم السلام، مرحب بأخي الحاج..تفضّل.

جلس الحاج على السرير،وافترش العبيد (الفروة) على الأرض ولسانه ماأنفك يلهج بكلمات الترحيب.

حدق حاج الزين بصمت في الأرض التي بين قدميه وأخذ يخططها بعصاه ،ثم نفث نفسًا حارًا وباغت العبيد بسؤالٍ حاد:

العبيد..ما هذا الكلام الذي سمعته؟

العبيد:

أي كلام يا الحاج؟

حاج الزين:

خِطبة بنتك أم نفلين للفهيم ود برير!

العبيد:

أي نعم لقد أخبرني الشاب بما يريد،إلا أنني استمهلته حتى أشاور أولًا.

حاج الزين:

هذا يعني أنك قد أعطيته وعدًا؟

العبيد يطرق قليلًا ، ثم يقول:

أي نعم ، وإن كان له نصيبًا سيكون.

حاج الزين:

أتعني أنك يمكن أن توافق على طلبه؟

العبيد:

أي نعم، كل شيء بأمر اللّه.

حاج الزين يشتط غضبًا ويقول:

أجننت يا العبيد؟

أتزوج بنتك لهذا الصعلوك؟

قبل أن يرد العبيد، أطلّت (أم نفلين) صاحبة الشأن من المطبخ وهي كانت سامعة لما يدور بين أبيها وعمها.

سلام يا عمي الحاج.

حاج الزين:

وعليكم السلام يا أم نفلين.

أم نفلين:

والله يا عمي الزين؛ ما في غصنًا ما هبّته الريح،الفهيم ود برير،ما الذي يعيبه؟

صمت المكان لبرهة، نهض حاج الزين واستنصر قوته وتجمع تجمع من يريد الوثوب فوق هوة عميقة، ثم خرج دون أن ينطق بكلمة.

(١٦)

أم نفلين فتاة مليحة تمشي في بياضها سمرة رقيقة كسمرة السحاب الرهو الذي يخالط وجه الشمس في ضحوة النهار، لا زالت تحتفظ برشاقة بنت الأربعة عشر ربيعًا، رغم تجاوزها لعقدها الثاني بقليل، أكملت تعليمها الأساسي فحسب،شأنها في ذلك شأن الكثيرات من بنات جنسها في القرية، حيث لا زالت تقاليد مجتمعهن تحد من ذهابهن للتعليم خارج نطاق القرية، ولهم في ذلك وجهة نظر تقول أن البنت تلزمها حماية، وهذه الحماية لا تتوفر إلا في بيت والدها أو زوجها..

نشأت أم نفلين مع ابن عمها المبروك وهو في سنها أو يكبرها قليلًا،لعبت معه طفلة، وأحبته فتاة، إلا أنه بعد تخرجه من كلية التربية وتعينه معلمًا، أصبح له رأي أخر، حيث ألقى بكل ذلك الحب وراء ظهره وتنكر لتلك الأيام الخوالي،ولقد كان هو الذي يشعل نار الحب في قلبها الذي لا تقنع المرأة من الرجل بدونه ولا تأنس بشيء سواه، ولكن تلك النار إن لم يتعهدها متعهدها بالتأجيج فترت وانطفأت واستدالت جمرتها إلى رماد.

تراجعت آلام أم نفلين وأحزانها إلى زاوية منفردة من زوايا قلبها فكمنت فيها، ولم تعد تشعر بها أو تذكرها إلا كما يذكر المستيقظ حلمًا ضئيلًا من أحلامه المزعجة ساعة ثم يمضي لسبيله، ولعل الله قد يجعل في زواجها من الفهيم الذي حرك قلبها ما يسليها وينسيها،وهي التي صبرت مر السنين، وهي ترى قريناتها قد تزوجن وأنجبن وتغمر السعادة دورهن.

العبيد رجل هادئ الطبع قليل الكلام، صبوح الوجه، كثير الانعزال عن مجالسة القوم،فهو دائمًا مشغول ما بين زراعته وتربية أغنامه،فإذا هلّ موسم المطر تجده يشمر عن ساعد الجد وينشغل بالزراعة حتى يحصد محصوله، وما أن يفرغ من زراعته حتى يتحول إلى رعي أغنامه، فهو يختلف كثيرًا عن أخيه حاج الزين الذي يحب المجالسة والمؤانسة، وتشوب طبعه الغطرسة والحدة والانفعال السريع حتى في توجيه النصح لا تخلو نبرته من حدة.

نادى العبيد أم نفلين التي جاءته تمشي على استحياء مطرقة الرأس حتى وقفت بين يديه وقد أشار عليها بالجلوس إلى جانبه ، ثم رفع رأسها وفي عينه نظرة عتاب لما ردت به على عمها، ثم تبسّم في وجهها وقال:

لا عليك يا بنتي..كل شيء بأمر الله ،والله فعّال لما يريد،وإن كان لك نصيبًا في الزواج من الفهيم سيكون بإذنه الله تعالي.

(١٧)

استقر رأي العبيد بأن وافق على خطبة الفهيم من ابنته أم نفلين، وغمرت الفرحة ست الدار والدة الفهيم التي كانت تدعو دائمًا لابنها بصلاح الحال، وهي لا تخفي تفاؤلها بزواجه من أم نفلين، أما حاج الزين فلقد أخذت تتقاذفه نوازع الخير والشر، ولكن غلبت نزعة الخير وبارك الخطوبة على مضض، وأخذ الفهيم يجدّ في تغير حياته حتى يكون مؤهلًا للمسئولية والنجاح في الاختبار الذي وضعه فيه عمه العبيد والد العروس، ومن ثم تفويت الفرصة على الشامتين وعلى رأسهم حاج الزين، الذي لا زالت عيناه تحمل شيئًا من الترصد والتربص رغم مباركته التي كانت على مضض.

رغم سحابة الغي التي لا زالت تكدر مظهره، إلا أن الفهيم نقي السريرة، رقيق القلب، فيوم أن تنقشع عنه تلك السحابة، تجده يغتسل ويلبس أنقي الثياب،ويجلس في الصف الأول للصلاة وقد نحرت الدموع خديه وهو يستمع لخطيب الجمعة..

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء، وسالت الأجواء بردًا وقرًا ودب المرض في أوصال ست الدار،وأخذت تكابد آلامًا جِسامًا لا تفارقها

يومًا حتى تعاودها أيامًا، فإن ألمت بها لزمت سريرها لا تفارقه وإن راوحت نهضت تخدم وحيدها فيما يلزم الدار، رغم أنه كان مشفق عليها ويلح عليها أن تبقي في سريرها وتأخذ دواءها، وأنه سيخدم نفسه متى ما عاد من عمله، ولقد كان بارًا بها وملازمًا لها منذ رحيل والده، فهو الذي عرف عنه بره لوالديه رغم مجونه،وكان لا يعصى لهما أمرًا، ولعل ذلك كان سببًا في توفيق الله له في كثيرًا من الأمور، اشتد المرض على ست الدار،حتى أسلمت الروح إلي بارئها.

(١٨)

أقبلت جيوش الليل، وخفقت رايات الظلام، وطفت النجوم في بحر الدجى، وبات في الشتاء بليلة صيفية، سامرته الهموم وعانقته الغموم، وقد توسد ذراع الحزن وافترش مهاد الغم، وتقلب على مراقد القلق، وجفا أجفانه الكرى، كأنما خلقت عيناه للسهر، سهر يفتق الجفن،ويقذي العين، ويؤذي القلب ويوحش النفس،قام مترنحاً من مرقده وجلس على الأرض ثم أمسك رأسه بيديه كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار وقال بصوت ضعيف خافت:

اللهم إنك تعلم إني غريب في هذه الدنيا لا سند لي ولا عضد إلا أنت سبحانك، وإني فقير إليك أطلب مغفرتك وعفوك وأن تلهمني الصبر في مصيبتي، وتقدر الخير لي.

ثم هجع هجعة أسلمته بواكير الفجر، فخرج متسللًا والقرية تغطّ في نومها، خرج الفهيم يمشي على قدميه مشية الحزين الحائر، ولم يعد ذلك الفتي الجميل الوضاح الذي كان منبت كل شعرة في وجهه ثغرًا ضاحكًا تموج فيه ابتسامة لامعة، بل مكانه رجلًا منكوبًا حزينًا،و قد استرخى حاجباه وثقلت أجفانه، وجمدت نظراته، وتهدل عارضاه

وتجعد جبينه، غادر المنزل وتركه كما هو دون أن يحمل منها شيئًا سوى بعض المال..

انتصف النهار افتقده أهل القرية، فقلقوا عليه وتدافعوا إلى منزله خشية أن يكون مكروها قد أصابه،كان المنزل خاليًا ساكنًا، أخذت تعصف بأذهانهم الظنون، بحثوا عنه في كل النواحي، فلم يجدوا له أثرًا.

(١٩)

رويدًا رويدًا بدد لغط حشدٍ صاخبٍ الصمت من حوله، وبجهد جهيد فرج أجفانه وهو يشعر بحرقة في عينيه ونظره مشوش، بذل مزيد من الجهد ليميز المكان من حوله، أضواء متناثرة، أصوات سيارات، هرج ومرج.

حاول أن ينهض لكن دون جدوى، لقد خارت قواه وسقط مغشيًا عليه مرة أخرى.

أطلبوا الإسعاف.

انبعث الصراخ من الحشد،عشرات العيون تحدق به،نقل إلى المستشفى فحصه الطيب جيدًا ، لم يجد أثرًا لأي جرح أو كسر أو مرض، عمد إلى مساعديه بتحضير كوب من الزنجبيل الساخن، ثم أخذ في تجريه شيئًا فشيئًا حتى فرغ الكوب.

بعد مضي ساعة من الزمان فاق الفهيم، وقد دفن رأسه بين يديه وراح يمسد صدغه بإبهاميه.

أخذ يتذكر.

تناول عشاءه ،اشتداد موجة البرد وإغلاق صاحب المطعم الذي تعشي

فيه لمطعمه، خروجه من المطعم وهو لا يدري ماذا يفعل؟

ولا إلى أين يذهب؟

كانت درجات الحرارة قد انخفضت انخفاضًا كبيرًا، وأخذ البرد يخترق ملابسه، ثم عصف الريح العاتية التي جعلته يركض في شوارع المدينة لإيجاد مأوى يأوي إليه، توقفه وجثوه على ركبتيه ليلتقط أنفاسه، مواصلته للبحث وتعثره وسقوطه في الأرض.

ثم ماذا بعد ذلك؟

مرة أخرى دفن رأسه بين يديه وهو يحاول عبثًا شحذ ذهنه دون جدوى.

كان منهارًا، حاول استرداد هدوؤه واستعادة رشده، دون أن يجد تفسيرا لاضطراب ذاكرته.

أهو آفة دماغية؟

أم صدمة مرحلية؟

من الواضح يعاني من فقدان الذاكرة.

لم يعد لديه أي ذكرى عن الأحداث التي سبقت وجوده في المدينة.

فهو لا يدري من هو؟

ومن أين أتى؟

من الواضح أن شيئًا ما قد انسد في دماغه ، ولقد أخفيت من حياته ما ينوف من عام.

هناك مرضى عاجزين عن تثبيت ذكريات قديمة بعد صدمة عنيفة وذلك رد فعل دفاعي كي لا يغرقوا في الجنون لكن ذكرياتهم عمومًا كانت تطفوا على السطح بعد بضعة أيام، أما في حالة الفهيم فالأمر يتعلق بفترةٍ تزيد على عام..

وحتى يسترجع ذاكرته ، يحتاج أن يعود إلى مكان الصدمة الأولي هناك حيث بدأ كل شيء،الخروج من القرية أو يجد شيئًا من ذلك المكان فيذكّره به، هكذا قال الطبيب.

(٢٠)

مرت الأيام والأسابيع والشهور وأهل القرية لا يعرفون شيئًا عن الفهيم.

أهو حي يرزق؟

وإن كان حيًّا ،يا ترى أين يقيم؟

ولما استيأسوا من أمره عمد العمدة مهدي إلى المنزل والمتجر وتولى رعايتهما وحفظهما، فعسى أن يعود صاحبهما يومًا فيجدهم قد صانوا داره وحفظوا ماله..

العمدة مهدي هو كبير القرية وزعيم أثريائها لما يمتلكه من متاجر وأطيان،فهو رجل شهم لا يتوانى في تولي شؤون رعاياه والسهر على خدمتهم بماله ونفسه.

استمر العمدة مهدي في البحث والسؤال عن الفهيم كلما وجد فرصة لذلك حتى جمعته الصدفة في مشيته الأخيرة إلى العاصمة بتاجر من التجار عند صديق من أصدقائه هناك، فعرّفه به ذلك الصديق، وفي أثناء الحديث الذي كان قد نحى منحى أهمية الأمانة والصدق وحسن التعامل مع الآخرين، خاصة عند من يمتهن مهنة التجارة، تحدث التاجر عن تاجر صادفه في إحدى مدن الغرب، يمتاز بكثير من صفات

التاجر الناجح من صدق وأمانة وحسن تدبير وتعامل مع زبائنه، وذكر فما ذكر أن هذا التاجر يقال عنه أنه غريب عن المدينة، وأنه قدم إليها قبل أكثر من عامين، وكان معدمًا وعمل في كثير من المهن والصنائع حتى استقر به الأمر عند التجارة، فما لبث عاملًا بها حتى صار من كبار التجار في هذه المدينة.

طلب العمدة من التاجر وصف هيئة ذلك التاجر الذي صادفه، فلما وصفه، شعر بأن الوصف يشير في مجمله إلى الفهيم ود برير، فطلب منه لو أنه عاد إلى تلك المدينة، أن يتقصّى عن أمر ذلك التاجر، من هو؟ من أين أتي؟

فبشرّه بأنه سيفعل..

ثم ابتهل العمدة مهدي إلى علاّم الغيوب جل جلاله بأن يرد غربة ذلك المسكين (الفهيم) وأن يجمع شمله مع خطيبته(أم نفلين) التي لا زالت باقية على عهده والزواج منه رغم ضغوط أهلها عليها ليل نهار بأن تتزوج من أحد خُطّابها الذين لا زالوا يتقدمون إليها، وكثيرًا ما أتى إليه والدها العبيد مستفسرًا عن الفهيم وأخباره، وكيف أنه يشكو كثرة الضــغوط عليـــه من أخيه حـــاج الزين بأن يزوجها لأي خـــطيب ولا يكترث لإصرارها بشأن انتظارها للفهيم.

أمّن التاجر على دعاء العمدة، وأكد له أنه سوف لن يترك سبيلًا في السؤال عن الفهيم بإذن اللّه، وأن اللّه سيرد غربته ويكمل فرحته بزواجه من خطيبته، لوفائها وصدقها وإخلاصها لمن أحبت.

(٢١)

لا زالت أم نفلين تنتظر أمير قلبها وفارس أحلامها (الفهيم) وفي داخلها شوق عميق ليس له قرار، ولهفة جارفة، وهي دائمًا ما تحدث نفسها عن رفيق العمر..

أين هو؟

وأين راح وغاب؟

ولماذا تركها في ظلام الحياة الذي أضناها كثيرًا؟

ولماذا جعلها تخوض معه معركة الفراق وهي بلا سلاح، بلا عتاد؟

ولماذا الفراق؟

فالحب عندها لا يعرف الغدر ولا الخيانة، رغم أنها لا تعلم سبب غيابه عنها، لكنها ما زالت تنتظر ولم تمل من طول الانتظار،فانتظاره أصبح حلمها الوحيد الذي يراودها يقظة ومنام،هذا هو حالها في غيابه، ولو أنه يعلم أنها في هذه اللحظة أنها تشعر بالانكسار والوحدة ودموع، ولا تستطيع أن ترى سوى رسم عينيه وبريق قلبه وابتسامته الطاهرة، ولو أنه يعلم كم أنها تحبه ولم تجد مقياسًا لحجم أو وصف يليق بمقدار ما تحمله من حب تجاهه.

إنها تشعر بانحناء ظهرها وبصعوبة في تنفسها وجفاف في حلقها ودموع تتساقط من عينيها من أسباب غيابه.

فأين هو الآن؟

و بأي حال؟

أهو سعيد بدونها أم حزين؟

لماذا البعد عنها كل هذا الزمان، وهو الهواء الذي تتنفسه، وهو النظر الذي ترى به، وهو الأمل الذي تعيش به، وهو السعادة التي تبحث عنها، وهو الطريق الذي أضاعته وحين وجدته كان طريقها وكان النور الذي تسلك به الطريق..

لقد أتعبها غيابه، وأضحت صحراء قاحلة تنتظر هطول أمطاره،وكأس فارغة تنتظر ملؤها بخمره، وجمرة باردة تنتظر حرقها بثقابه لتشتعل فهي تنتظره أملًا على رصيف الانتظار.

(٢٢)

لا زال حاج الزين يكتحل بنظرة سوداوية تجاه الفهيم، وما ذُكر ذلك الفتى المسكين في مجلس من مجالس القرية، إلا تبرم وتأفف وإسود وجه وهو كظيم، وقال بصوت ينم عن غيظ دفين:

دعونا عن هذا المنحوس وشأنه..

وكثيرًا ما كان يتصدي العمدة مهدي لحاج الزين في مسألة كرهه للفهيم ووصفه له بأنه عربيد وطائش وغير مؤهل لتحمل مسئولية أسرة، فيذكّره بقول بنت أخيه(ما في غصنًا ما هبته الريح) وكيف أن ابنه المبروك تخلى عنها، وكيف أنهم كانوا في مجون ربما فاقت ما عليه الفهيم ود برير الآن، وأن ابنة أخيه لم تجانب الصواب فيما ذهبت إليه، فكيفما تابوا هم وانصلح حالهم، فالمولى عز وجل قادر على أن يهدي الفهيم من غيه ومجونه، بل ربما زواجه من أم نفلين الرزينة الراسية يكون سببًا في تعجيل تلك الهداية.

فهذا الرد القوي دائمًا ما يخرس حاج الذين ويدفعه لمغادرة المجلس.

حتى،أن العلاقة بينه وبين العمدة في الآونة الأخيرة شابها الكثير من الفتور ، بل طال ذلك الفتور حتى العلاقة مع شيوخ القرية الذين بدءوا

يأخذون موقفًا صارمًا من حاج الزين الذي ما زال كرهه للفهيم يدفعه إلى مراقد الظلم والحسد خاصة يوم أن أصر على بيع منزل ودكان الفهيم للمستثمر الذي حل في القرية، وأخذ يلتهم أملاك المعسرين الذين عجزوا عن سداد دينهم له التهامًا،مع أنه ليس له دين على الفهيم ،إنما الأمر كان كيد وحقد لا غير.

لقد خسر حاج الزين الكثير من رفقائه وندمائه الذين لا يرون مبررًا لعداوته للفهيم التي أسرف فيها إسرافًا، حتى أن ابنه المبروك كثيرًا ما حاول إثنائه عن مواقفه المتعنتة التي قد تبعده عن الجماعة وتذهب بمكانته ووقاره بين الناس.

(٢٣)

بعد أن حدّق به الهم وعضّه الفقر، والتوى عليه سبيل الهناء وحاربته الليالي وخاصمه الحظ، وقاست سفينة حياته من زعازع الحوادث.. تقدم آمنًا إلى بر السعادة بعد أن وفقه الله في استعادة إرادته،وتصفّح وجوه الرزق وجهًا وجهًا وورود مناهله منهلًا منهلًا حتى وقف به الحظ على مهنة التجارة التي ورثها عن أبيه فأنس بها، وما زال يعطيها من نفسه حتى أصبح من الأثرياء في بحر عامين ونصف من قدومه المدينة لكن لقد أنسته الأهوال والأحزان القرية وأهلها، بل أنسته حتى نفسه التي بين جنبيه،بأنه من يكون؟

ومن هم أهله؟

وأين بلده؟

حتى أنه في ذلك النهار وبينما هو جالس أمام متجره، وقف بين يديه تاجرٌ من التجار المتجولين الذين كان يتعامل معهم ،فذكر له أنه التقي رجلًا من قرية من قرى بحر أبيض يدعى العمدة مهـــدي، وأن هذا الرجل سأل عــنه، بعد أن سمع عن أوصافه،صمت الفهيم طويلًا وشرد بذهنه وأحس بأنه قد أطل من قاع جُب عميق ليس له غرار، لقد تاه

عن ماضيه وهو يعصف ذهنه ليل نهار محاولًا استذكار شيء منه، فكان بالرغم من استغراقه في العمل يحس بأن هنالك شيئًا ما ينقصه،وها قد بدأ يتذكر العمدة مهدي وملامح القرية شيئًا فشيئًا بعد أن سمع اسمها (تميرة) نظر التاجر باشفاق إلى الفهيم هو مستغرق في شروده، وقد ذرفت عيناه الدموع، ثم سأله عما به،فتبسم الفهيم واعتذر منه وأكد له أنه بخير، ثم شكره وحملّه رسالة إلى العمدة مهدي يبلغ فيها بأنه قادم إلى القرية قريبًا بمشيئة اللّه.

وصل الخبر إلي أهل القرية في بحر يومين، بأن الفهيم حي يرزق وأنه عائد للعيش بين أهله،ولم يمضي على ذلك سوى أسبوع، حتى عاد الفهيم بعد طول غياب دام أكثر من عامين.

(٢٤)

رائحة المطر تملأ أجواء الطريق فأسبغت على نفسه ارتياحًا، وجعلت ذاكرته تنشط بصور أكبر كلما اقترب من القرية.

ترجّل من البص الذي كان في طريقه إلى العاصمة عند مدخل القرية في نفس الموضع الذي استغل فيه البص الذي كان متجهًا إلى الجنوب ثم إلى الغرب قبل أكثر من عامين،اخترق الشارع المتجه نحو الشرق والقرية لا زالت نائمة في هدأة الصباح البارد، عبر باتجاه الشارع الذي يلف المقبرة، خطر بباله أن يدخلها لإلقاء التحية وقراءة الفاتحة على قبري والديه،أثارت فيه الوقفة على قبريهما حزنًا عميقًا فبكى ثم استغفر الله ودعاء لهما بالرحمة والمغفرة، ثم خرج متثاقل الخطوات وهو يعبر الفسحة الواسعة التي يتجمع فيه أهل القرية في موسم الأعياد،بدا له عند نهايتها مقهى الكريد فتوجه إليه، فهو محتاج إلى فنجان من القهوة لوقف الصداع الذي كان يدق بقوة جدران رأسه من الداخل..

صاح به الكريد:

من؟

الفهيم!

فعانقه وهو يذرف دموع الفرح وما هي إلا دقائق حتى نهضت القرية من هجعتها وتدافع خلقها إلى منزله الذي امتلأ عن آخره، ولم يبقى رجل أو امرأة، كبيرًا أو صغيرًا إلا وقد أتي مهنئًا له بسلامة العودة،عدا حاج الزين الذي أخذت تضرم في صدره نار الكره والحقد والحسد بعد أن عاد من يرى فيه العداوة حتى وهو غائب عن القرية ناهيك أن يحل فيها وأي حلول، حلول يهدد هذه المرة مصالحه المباشرة المتمثلة في دكانه العتيد الذي هو مصدر كسبه، إن عودة الفهيم تعني لحاج الزين الكثير، خاصة بعد أن خاصمه معظم أهل القرية بسبب مواقفه غير المبررة تجاه الفهيم.

(٢٥)

مكث الفهيم شهرًا كاملًا في القرية، رمم فيه داره، ووسع دكانه (المقهى) بل و حول له إلى محال تجاري على أحدث طراز يضاهي المحال التجارية في المدن، حتى يستوعب تجارته التي اعتزم نقلها إلى القرية، خاصة أن القرية بدأت تدب فيها معالم المدنية بصورة واضحة وأنها في حاجة إلى نوع جديد من النشاط التجاري الذي يقابل متطلبات العصر الحديث،وفي بحر الشهر التالي أكمل الفهيم نقل تجارته إلى القرية، واستقر بين أهله وأحبائه، ثم عمد إلى إكمال زواجه من أم نفلين تلك التي جرت في أوصالها ماء الحياة منذ أن سمعت بخبر عودته وكانت أول المهنئين.

لقد أغدق الكثير من المال في جلب أفخر الثياب وأرقى العطور وأغلى الحلي إلى جانب كل لوازم العرس من مأكول ومشروب وغيرذلك،إكرامًا لأم نفلين تلك الأصيلة التي وفت بعهدها له، وما يغدقه من مال ما هو إلا القليل تجاه هذا الوفاء النادر،دفع الفهيم خمسة ألف جنيه مهرًا لأم نفلين، وجهز داره التي سوف تشاركه إياها بأثمن الأثاث وأجمل التحف.

وبعد أن اكّتملت مراسم (الشيلة) المتمثلة في لوازم العروس من ثياب وعطور وزينة، ولوازم الوليمة من مأكولات ومشروبات، جاء يوم (الحنّة) الذي كان فيه تجهيز العروس بوضع الحناء ونقشها على يديها وقدميها، فزين جدران غرفتها بأغصان الجريد الخضراء وفرشت أرضيتها بسجاد أحمر اللون وضع عليه سرير من الخشب المخروط موضوع عليه برش من (السعف) أحمر مزركش جلست عليه العروس وهي مرتدية ثوب الفركة الزاهي، ووُضعت أمامها صينية مزينة بالورود يتوسطها صحن الحناء الممزوجة بعطري (المحليبة والسرتية) ثم أخذت الحنانة (المرأة التي تخضب النساء بالحناء) في نقش أشكال مزخرفة جميلة على يدي و قدمي العروس، وفي أثناء الرسم أخذت الفتيات يضربن على الطبل و يغنين أغنية (العديل و الزين).

ولقد جلس العريس هو الأخر في ديوانه على سرير مماثل، مرتديًا الجلابية البيضاء والعمامة الخضراء ومنتعلًا الشبشب الأبيض (الصندل) وقد أفرد يديه وقدميه، للفتيات اللائي شرعن بوضع الحناء عليهم،وسط أهازيج وصيحات أقرانه الذين حفوه من كل جانب.

(٢٦)

اليوم إكمال مراسم العرس، ذبحت الخرفان والثيران وأقيمت الوليمة في بيت العبيد والد العروس الذي اتفق معه الفهيم بأن تكون الوليمة في مكان واحد بدلًا من مكانين فهو وحيد وليس لديه من يقوم بأعباء الوليمة، وبعد أن فرغ المصلين من صلاة العصر، توسط الشيخ الباهي (المأذون) الحضور وبين يديه العمدة مهدي الذي وضع يده كوكيل للعريس في يد العبيد والد العروس، فتم عقد الزواج، ودعا الشيخ الباهي للعروسين بالفلاح في والنجاح في حياتهما وأن يرزقهما الله الذرية الصالحة، ثم قام وشد على يد الفهيم مهنئًا وتبعه حاج بدر والعمدة مهدي والحضور من بعدهم مهنئين في مشهد جعل العريس يذرف دموع الفرح الممزوجة بالتمني لو أن والده (رحمه الله) كان من بين الحضور حتى يشهد معه هذا اليوم المشهود.

قام حاج الزين الذي كان يجلس في مؤخرة المسجد ، وتقدم بتثاقل نحو الفهيم الذي كان واقفًا إلى جوار صهره العبيد، فمد إليه يده دون أن يحرك شفتيه بكلمة، ونظر إلى أخيه العبيد دون أن يصافحه وانصرف مشيعًا بنظرات الغمز واللمــز من قبـل الحـــضور بعد أن أفشت بنت

بادي(أم حديس) سر كرهه للفهيم، بأنه أي حاج الزين كان من خُطّاب ست الدار (والدة الفهيم) ولكنها رفضته وفضّلت عليه حاج برير (والد الفهيم).

(٢٧)

حاج الزين وحاج برير كانا صديقين حميمين، حتى أطل الخلاف بينهما وقلب صداقتهما إلى عداء مستحكم، ويعود سبب العداء إلى يوم تنافسهما كشابين على (ست الدار) تلك الفتاة المليحة التي كانت ملكة جمال زمانها،وأنها كانت تميل بقلبها إلى برير وعاهدته بأن لا تكون إلا له، الأمر الذي جعله يتقدم لخِطبتها ، لكن والدها أخبره بأنها ستتزوج من (الزين) الذي كان والده صديق وشريك له في تجارته، وأنه وعده بأن تكون له، ولما سمع برير ذلك من أبيها. إسودت الدنيا في عينيه، ولم يستطع الوقوف على قدميه،وشعر بأن الأرض تغور به،فخرج هو يتنكب الخطى والمرارة تقص في حلقه، وهو يحدث نفسه :

كيف لصديق عمره ورفيق دربه الذي يعرف ما يدور بينه وبين (ست الدار) من علاقة شريفة وهما يسعيان بها ليتوجانها بالزواج،يسمح لنفسه أن يقف في طريق سعادتهما؟

عرفت ست الدار من والدها ما جرى بينه وبين برير ، فقالت له أنها لن تتزوج الزين،ولـــكن والدها لم يسمع لــها وأصر على رأيه، وأكد

لها أنه لن يتراجع عن كلمته التي أعطاه لصديقه وشريكه.

وردت ست الدار برفضها للطعام والشراب، والبكاء ليل نهار، بعد أن عرفت بأن برير ترك القرية ولا أحد يعرف أين ذهب؟

مرت الأيام ولا أثر لبرير وست الدار عازمة على رفضها وشحب جسمها وأصفر وجهها ، وأشفقت عليها والدتها وأخذت تلحّ على والدها بأن يترك البنت وشأنها وأن تختار من تشاء..

وما زال الأمر كذلك حتى تسرب الخبر إلى والد (الزين) الذي كان رجلًا حكيمًا، فنهى الموضوع قائلًا لوالد ست الدار،أن صداقتهما وشركتهما لا دخل لها بالمصاهرة وأن الزواج بالتراضي.

وصل الخبر لبرير الذي طار من الفرح وعاد لتوه وتم زواجه من ست الدار وكانت ثمرته وحيدهم الفهيم،أما حاج الزين فظل لا يرى عدوًا في دنياه إلا برير ومن بعده ابنه الفهيم.

(٢٨)

خرج الرجال من المسجد وتوجهوا إلى مكان الوليمة وسط إطلاق الأعيرة النارية، التي

ما أن سمعتها النساء حتى أطلقن الزغاريد وأنشدن الأهازيج، والصبية من حولهن يتدافعون لجمع ما كان ينثرن من تمر وحلوى..

تسلل حديس من مخبئه ، وهو عادة ما يداهم ولائم المناسبات المختلفة،فهو أبله لا يؤاخذ علي أفعاله وهي أفعال أدمنت اقتحام الولائم لما به من شراهة مفرطة في التهام الطعام ، فهو يستطيع أن يقضي علي وليمة كاملة تكفي لأكثر من عشرين شخص في لحظات وجيزة.

استغل انشغال الناس بمراسم العقد وطقوسه فداهم الطعام،هكذا كان الوضع حديس في صيوان الوليمة وأمامه الصواني متاحة،بدأ برفع غطاء الصينية الأولى فصاح فرحًا:

يا سلام لحم!

التهمها بسرعة عجيبة وانتقل إلى الثانية،ثم الثالثة والرابعة،وهو يقهقه بضحكاته الغريبة، وقد زادت شراهته.

اضطرب القوم بعد سماعهم لمداهمة حديس الخطيرة،فأسرعوا في الخطى حتى أدركوه، فصاح به الشيخ الباهي:

ما معقول يا حديس يا أخي!

ففر حديس حاملًا بين يديه طبق ثريد كبير مزينًا بالأرز واللحوم وهو يضحك ووالده (الكريد) يضحك كضحكته التي أورثه إياها ويقول للجمهور:

كثيرًا ما كنت أنصح وأقول للشيخ الباهي، من الأفضل أن يسبق الغداء العقد،ولكن لا يطاع لقصير أمرًا.

ثم يستغرق في الضحك والناس يضحكون لضحكه.

بغضب جائع صاح جمهور من الحضور:

(يا شيخ الباهي من اليوم فصاعدًا الأكل قبل العقد).

(٢٩)

برزت الشمس إلى الوجود، وبدأت الدنيا تشرق وتدعو الكائنات إلى اليقظة والعمل، وبدأت الطيور تزقزق، وبدأ الناس يظهرون، أفرادًا متناثرين أول الأمر، قادمين من المسجد بعد الصلاة، أو آخذين طريقهم إلى أعمالهم، ومع إشراق الدنيا، ذهب العمدة مهدي إلى دكانه في السوق، وقد سبقه إلى هناك صبيه يس، فوجئ يس بآثار أيدي عبثت بدرج النقود، ولما أمعن النظر، رأي ثقب في جدار الدكان، فهرول إلى جهة الثقب من الخارج، فإذا بآثار للدقيق المتناثر هنا وهناك، سمع صوت العمدة قادم ينده عليه، وقبل أن يرد، تصايح معظم التجار بأن دكاكينهم قد سرقت، أقبل التجار إلى العمدة في دكانه، وأخذت أيديهم تشير إلى دكاكينهم مرة ومرات إلى الأرض والسموات العلا، ولا أحد يدري كيف تسرب الخبر إلى أهله القرية، فالخمسة الواقفون أصبحوا عشرة، والعشرة صاروا عشرون ، وما أسرع أن تجمهر الخلق وجاء رئيس مخفر الشرطة وقد سبقته الأيدي تدفع الواقفين وتفسح له الطريق، وكان المساعد كدوس لا يقل رغبة في معرفة الحاصل، ولكن كان حريصًا في ذات الوقت على أن لا يفقده ذلك الشغف هيبته، فما

أن قارب المتزاحمين، حتى مد يده وأحكم كابه فوق رأسه، ثم اكتست ملامحه طابع الجدية كما يجب أن تكون عليه حين يراه المواطنون. طاف مع مجموعة من عسعسه على الدكاكين المسروقة،دون أن يجد أثرًا للخفير ود عجب الذي كان عليه نوبة الحراسة في تلك الليلة.

رغم أنه قد تجاوز عقده الرابع إلا أن نفسه لا زالت تورده موارد السكر حتى الثمالة، أعد سريره أمام المخفر الذي يتوسط السوق بعد عناء وهو يترنح يمنة ويسرة، ثم خر صريعًا في فراشه دون حراك، وقد غطّ في النوم كالقتيل، قدم اللصوص، وأحاطوا به من كل جانب، ثم عمد أحدهم إلى ريشة الاختبار فحركها في أرنب أنفه عله يفيق، وهل يفيق قتيل الثمالة؟ نهبوا ما شاءوا وكيفما شاءوا،ثم شيعوه إلى مقابر القرية،وذهبوا لحال سبيلهم.

أخذ العسعس ينتشرون في أنحاء القرية ومداخلها بحثًا عن خيط يدلهم على مصير ود عجب أولًا واللصوص ثانيًا، وأخذ الناس ينسجون الأقاويل..

من أين أتي أولئك اللصوص؟

وهل هم من داخل القرية أم من خارجها؟

وماذا فعلوا بود عجب؟

أم هو شريكهم في السرقة؟

أم أوثقوه بالحبال وكموا فاه وألقوا به في العراء؟!

لاح في الأفق البعيد شخص قادم من جهة المقابر، ولما اقترب فإذا هو العجيب ود عجب، يحمل سريرًا على كتفه،ويقول أنه لم يدري بشيء سوى أنه استيقظ في وسط الأموات.

(٣٠)

العجيب ود عجب رجل قصير القامة،صغير العينين،فكاهي الملامح والتصرف لبساطته التي تصل إلى حد السذاجة، تحكى عنه غرائب الأشياء.

كان يقضي نهاره كسايس خيل في دار العمدة بركات والد العمدة مهدي وينفق ليله كخفير من خفراء السوق..

تزوج من عجيمة تلك الجارية الكحيلة التي هبطت في القرية من جهة الصعيد (الجنوب)، أنجب منها الكريد، ثم فجأة اختفى من القرية ولم يجدوا أي أثر يفسر اختفائه، وظلت عجيمة وصغيرها الكريد الذي كان في الخامسة من عمره يأملان في ظهوره دون جدوى، وبعد خمس سنوات من تلك الحادثة توفيت عجيمة وتركت ابنها الكريد يتيمًا تربى في كنف العمدة بركات، ولما بلغ سن الخامسة عشرة خلف والده كسايس خيل عند العمدة مهدي الذي خلف والده هو الآخر وزوج الكريد من تامرية بنت ساكن التي هي أيضا تربت كيتيمة في بيت والدي ست الدار والدة الفهيم، بعد أن توفى والداها اللذان كان يخدمان لدى والدي ست الدار، فأجنب منها حديس الذي طغت فيه جينات

جده العجيب ود عجب إلى حد البلاهة..عكس والده الكريد الذي يمتاز بالظرف وخفة الظل وحضور الفكاهة، وإن كان ثمة قاسم مشترك بينهما هو الضحكة الغريبة التي تبدو كتركة منقولة من الجد إلى الحفيد مرورًا بالأب.

(٣١)

الصغيرات كنسن الساحة والصبية بمتعة متناهية تنتمي إلي اللعب رشوا الساحة بالماء.

أطلق الكريد عدد من الأعيرة النارية في الهواء، وهو يحس الفتيان والفتيات للخروج إلى الساحة فهو دائمًا ما يحن إلى أيام الشباب والزمن الجميل كما يسميه، وأن مثل هذه المناسبات تثير فيه الذكريات الجميلة.

تحلق الفتيان والفتيات في دائرة، وتقدم أحدهم نحو إحدى الفتيات وضرب برجله الأرض،فتقدمت الفتاة المعنية إلى وسط الدائرة وهي ترقص على إيقاع الطبل، وثوبها منحدر عن رأسها، وصدرها بارز ونهداها نافران و ذراعيها إلى جانبها تحركهما في تناسق مع رأسها وصدرها ورجليها، ويصفق الفتيان ويضربون الأرض ويحمحمون بحلوقهم، ثم عاود الفتى مكافأتها بدق (السَكة) وهي عملية ضرب أحد القدمين بالأرض بشكل عنيف ويعتمد وقعها وتأثيرها لدى الفتيات على مدى قوتها، وردت هي الأخرى عليه برمي (الشبال) وكيفيته هي أن تقوم الفتاة بهز رأسها يمنة ويسرة بإيقاع سريع لمرة أو أكثر بحيث

يتحرك معها الشعر بوضع متناثر يفوح منها رائحة الكركار (الزيت المعطر) وهنا تعالت الزغاريد واشتد التصفيق وقوي وقع الشبان على الأرض متناغمًا مع غناء المغنية وضربات الطبل، ثم اتسعت الحلبة بانضمام المزيد من الفتيان، الذين وثبوا وتصايحوا وفرقعوا بسياطهم وأخذوا يجلدون بعضهم البعض، وخرج هو كالطاووس يرتدي قفطان أبيض ووشاح أخضر، وعلي رأسه عمامة كبيرة، وفي يده سوط طويل من الجلد، وفي أصبعه خاتم من الفضة، منتشيا دون شرب من الضجيج الذي يضج حوله، يتبسم ويرد على تلويح المبشرين بالسوط الذي في يده، دار في حلقة الرقص وجلد عدد من الفتيان، وهزّ فوق المغنية ووضع على جبهتها عشر ورقات فئة خمسون جنيه،فتعالت زغاريد النساء وصيحات الشبان.

(٣٢)

الشمس لبثت ثوبها الثالث، ثم ما لبثت أن هوت إلى مستقرها، وبدأ الليل يزحف حثيثا إلى القرية وقد أخذ يمحو معالمها شيئًا فشيئًا،وصفت السماء وبدا القمر الذي هو خارج لتوه يرسل أشعته الفضية التي كست وجه الأرض جمالًا وبهاءً.

بدأت مرسم ليلة الدخلة التي طالما انتظرها الفهيم بشوق وترقبتها العروس بشعور من الخوف والحياء، لقد ألبس العروس فستان قصير أبيض يبرز مفاتنها، وزيّنت بالحلي من رأسها إلى أخمص قدميها وأهم زينة في هذه الليلة كانت (الرحط) الذي هو عبارة عن مجموعة من خيوط الحرير الأحمر اللامع بدلًا عن سور الجلد في سابق الزمان وضعت تلك الخيوط في شكل حزام على خاصرة العروس، ثم غطيت العروس بثوب أحمر مشكل لامع يسمى (القرمصيص) وعُطرت بأزكى العطور البلدية مع نثر الضريرة (عطر الصندل الجاف) على رأسها.

زُفّ العريس إلى بيت العروس لأداء مراسم الدخلة وقطع الرحط، وهو يتبختر في غاية الأناقة في بزته التي ينعكس لونها الأزرق الغامق على بشرته ،بينما ربطة العنق الباهتة الصفرة تكاد تحاكي لون بشرته فوق

القميص الأبيض، الحذاء الجلدي الأسود من ذات جلد الحزام،الساعة الذهبية الفاخرة في معصمه الأيسر تغازل حرير العرس، وخاتم الفضة الذي في أصبعه يلمع تحت وهج الشموع، حمل السيف على كتفه الأيسر وأمسك بالسعفة في يده اليمين وأحاطت به الصبايا يهزجن بالأغاني، والشبان يتصايحون والنساء يزغردن والرجال يبشّرون ويعرضون بعصيهم و سيوفهم ، ولما أدركوا بيت العروس توقف الجميع عند مدخل الغرفة المعدة لمراسم الدخلة، ودخل العريس بمفرده ليجد الغرفة محتشدة بعاقلات النساء من قريبات العروس اللائي سيشهدن بحسنها وعفتها والتصدي لكل من تسول له نفسه بالقدح أو تشكيك فيهما، وكان يلزم أن يكون هنالك أيضا فريق من النساء من جهة العريس إلا أنه وحيدًا وليس له من يتصدى لتلك المهمة، رفع العريس القرمصيص عن عروسته وجر خيط الرحط فسقط كاشفًا محاسنها للحاضرات.

ألبست العروس الزفاف وخرجت مع عريسها إلى ساحة الحفل فجلسا في سرير مزين بفرش وثير ، ثم طفقا يتبادلان مج اللبن على بعضهما البعض تفاؤلًا بأن تكون حياتهما بيضاء نقية خالية من المشاكل والعنت، وبعد انتهاء الحفل الذي صدح فيه المغنين والمغنيات بالقديم

والحديث من الغناء، تحرك موكب العروسين إلى بيت الزوجية وسط زغاريد النساء وصيحات الشبان وتبشير الرجال، ولما استقر العروسان في دارهما، تفرق الأهل والأصدقاء وهم يودعونهما ويدعون لهما بالهناء والسعادة.

(٣٣)

لم يدخر الفهيم جهدًا في التصالح مع حاج الزين، بل أقنعه بأن يحدّث له دكانه،على أن يسدد الحاج تكلفة التحديث بأجل مريح، الأمر الذي غيّر حاج الزين تجاهه بل وجعله ما أن جلس مجلسًا إلا أثني على الفهيم، وتصدى لمن يحاول النيل منه.

ثم عمد الفهيم إلى ترميم مدرسة القرية الأساسية، وتوسيع المسجد وبنائه وصار بحمد اللّه وفضله من رواده، لا تفوته فيه مكتوبة من المكتوبات أبدًا، وكذلك أنشاء مدرستين ثانويتين للبنات والبنين في القرية كوقفين لروحي والديه..وقدم طلبًا لإدارة التعليم في الناحية بتعين المبروك ود حاج الزين مديرًا لمدرسة البنين، وقد كان، ثم جلس هو وزوجته أم نفلين لإمتحان الشهادة الثانوية من المنازل وأحرزا نجاحًا مكّنهما من الإنتساب للجامعة المفتوحة حيث حصل هو على درجة البكالوريوس في المحاسبة وحصلت أم نفلين على بكالوريوس تربية (علوم) وعينت معلمة في ثانوية البنات،كذلك أنشأ مكتبة عامة في القرية وأخرى خاصة في بيته، أما المكتبة العامة لقد أسهمت كثيرًا في تثقيف وتوسيع مدارك أهل القرية، وكان يرتادها حتى الشيب الذين إن لم

يكونوا جميعهم من خريجو الأولية فمعظمهم كذلك، وحتى البقية باقية منهم هم ممن تلقوا تعليمًا دينًا في الخلاوى.

لقد أصبح الفهيم شغوفًا بالقراءة والإطلاع والعكوف طوال الساعات في مكتبته العامرة بأمهات الكتب في كل مجالات الحياة، دون أن يغفل عالم التقنيات الحديثة من (نت) وغيره، كل ذلك وسع مداركه وجعله ينظر للأحداث والمغيرات بتدبر وتمعن وبعين التحليل والاستنتاج الدقيق ويضع إصبعه على مواطن الخطأ والصواب فيها ويستطيع أن يحولها إلى معلومة مفيدة للناس عبر كتابتها في مقال أو قصة وهو يرى في ذلك أنه يتحمل مسؤولية تاريخية وأخلاقية ليمارس دوره في الحفاظ على مستقبل الأمة لأنه يحمل رسالة إنسانية لابد أن يكون أمينًا تجاهها وأنه يجب أن يكون ناشرًا لقيم التسامح ونابذًا لكل مفاهيم الحقد والكراهية معتبرًا إنسانية الإنسان فوق كل اعتبار،وأنه كمثقف يجب أن لا يكون أسيرًا للأعراف والتقاليد المورثة من الزمن الغابر، وأنه من الضروري أن يتسم بالانفتاح على الأخر وعدم التعصب للرأي أو الانتماء الشخصي، وأن يمنح الآخر فرصة للتعبير عن رأيه بعيد تمامًا عن مدح النفس وتبجيلها كما هو بعيد عن مهاجمة الآخرين بسبب الاختلاف في الرأي،وإن انتقد ينتقد نقدًا بناءً.

(٣٤)

شيخ محسن، رجل زاهد جم التواضع، أدبه والده الشيخ سالم فأحسن تأديبه، حفظ القرآن وهو ابن عشر سنوات ودرس الفقه على يد والده وعدد من المشايخ، ورث الورع عن والده الشيخ سالم ، ذلك الفقيه الذي حكي الكثير عن ورعه وزهده، وكيف أنه كان يتحرى الحلال في المأكل والمشرب، ولا يدخل في جوفه شيئًا إلا من خبز زراعته ولبن غنمه،كان مستجاب الدعوة، يستسقى به أهل القرية عند ضنين الغيث، فكان يتسلق شجرة (السنط) التي تتوسط داره، ويرفع يديه بالدعاء، فتكون الإجابة من الرحمن الرحيم سبحانه بأن ينهمر المطر، ويذهب الظمأ ويرتوي الخلق، ولقد تلمس شيخ محسن خطى والده وتمثلها، وعرف عن ورعه أنه يبيع بقرته التي يجد في روثها شيئًا من ذرة أو دخن وهو يعلم أنه لم يُطعمها ذلك، حتى يتقي شبهة الحرام فيما تدر من لبن، ويعرف عنه أنه الوحيد من أبناء جيله الذي لم ينغمس في برك العربدة الآسنة التي كان تضرب بأطنابها أركان المجتمع، فهذا الورع أهّله بأن يكون خليفة أبيه في إمامة مسجد القرية.

اليوم الاثنين، التـــوقيت الخـــامسة عصرًا المكان بيت العمدة مهدي.

المناسبة وليمة بمناسبة عودة ابنه أنيس من الاغتراب بعد طول سنين ..الجميع جلوس أمام ديوان العمدة..

قال شيخ محسن:

كان الناس في الزمان الماضي يعربدون لقلة المعرفة بينهم خاصة في أمر الدين والعبادة، لكن رغم ذلك كانوا أصيلي الطباع ،يسود بينهم السماح والصدق والعفة، وليس بينهم حسد أو حقد أو ظلم ، وإن اختصم اثنان،أصلح الثالث بينهما،ولكنّي أري حال الناس في هذا الزمان قد تبدّل كثيرًا وابتعدوا عن تلك الطباع السمحة، رغم غزارة العلم ووفرة المعرفة وتطور وسائل التعليم وسهولة الوصول إليها..فماذا دهاهم؟

قال ذلك موجهًا تساؤله للمبروك الذي كان يجلس قبالته:

أي نعم فعلًا يا عمي الشيخ محسن ، الناس في هذا الزمان، عربدتهم ومجونه فاقت التصور، نعم تطوروا في عالم ما يسمونه بـ(التكنولوجيا) ولكن انحدروا كثيرًا من خلال عوالم (النت) و(الفضائيات) في الأخلاقيات، والعجب كل العجب ما تأثرت به الفتيات من عالم الموضة والكريمات، والملابس الفاضحة.

تدخل العمدة مهدي وقال:

أي صدقت والله يا ولدي المبـــروك، المحن والمصائب في هذا الزمن أصبحت لا أول لها ولا أخر ،شيء ممنوعات وشيء فساد أخلاق وشيء رذيلة وغير ذلك من المحن والإحن، إلا الله يهون ويصلح الحال ويرد الغافلين إلى الطريق المستقيم.

الفهيم:

نعم عالم النت والفضائيات هو وعاء يحوي في داخله الغث والسمين،فعلينا نحن كمجتمع ينشد الحكمة والفضيلة، نأخذ السمين ونترك ما سواه،لكن المشكلة ليست في النت الذي هو جزء من كل، بل في الحضارة الصناعية في مجملها التي بسببها كان تدرمير الغابات الطبيعة ونقص الأوزون وارتفاع درجات الحرارة وتلوث الهواء والماء فكل ذلك يشكل تهديدات قاتلة لوجود الإنسان والنتيجة هو انقياده للأدوات والتكنلوجيا المغرية التي جاءت بها تلك الحضارة، وبالطبع هذا خلق مشكلات جديدة أصبح بسببها البشر منعزلين عن بعضهم البعض، منفصلين عن جذورهم وعليهم أن يعيدوا النظر في عاداتهم وممارساتهم التي تعبّر عن هذه الأزمة والتي كانت سببًا لها منذ البداية ومن بينها الرأسمالية الجديدة المولعة بالكسب والتي عميت عمّا تسببه للبيئة من دمار، وأننا نشعر بالابتعاد عن جذورنا في الأرض كلما ارتفع

صراع الحضارة وأصبح شديد التعقيد، وأن الحضارة تواجه الآن أزمة هوية جماعية، وأنها تعاني من أزمة روحية بسبب خواء الجوهر وغيبة الهدف..

لقد أصبح المجتمع المدني العادي مجتمعًا ماديًا قمعيًا متفسخًا خاليًا من الإبداع الحقيقي، معاديًا للطبيعة بشكل واضح بلا وعي، بعد أن أوصلته تكنولوجياته إلى حافة الدمار إن لم يكن قد دمرته بالفعل،أما الأفراد الذين يتمتعون بالحيوية والقدرة الكافيتين للصراع ضد المد التخريبي الذاتي للمجتمع، فالسينما تقدمهم لنا عائشيين على الهامش كمجرمون فقراء أو أفراد شرطة أوغاد أو مشردون أو بعبارة أخرى (اللاخلاقيون)، فيكون البطل هائم بين عالمين عالم الانحلال وعالم الحقيقة الأعلى الكامنة وراءه. وبالطبع صانعوا أولئك الأبطال يزودونهم قدر كاف من الجنس والعنف واللغة البذيئة كعلامات على حيوتهم بينما المجتمع العادي يتحطم إلى شظايا من الزجاج المكسور والطائرات والسيارات المفخخة والمباني المدمرة، كل ذلك يعني أخـــطار محـــدقة بالحياة من جراء التـــكنولوجيا والعلم الزائدين عن الحد.

المبروك:

نعم..كلما ما ذهب إليه أخي الفهيم صحيح، وفعلًا المجتمع الآن صار مجتمعًا شديد المادية، مفلسًا من الناحية الروحية، ومجردًا من القيم الإنسانية، حتى أضحى في جميع أركانه صياح متقطع لأولئك الذين يشترون النسيان بكأس تبعدهم كل البعد عن واقعهم التعس وهم يحلقون في عوالم أخرى بعيدة عن واقعهم المؤلم، ويتأرجحون في أحضان الرحلات التي يقضونها وهم في أماكنهم لا يتحركون وما جريرتهم إلا أنهم ضحايا تلك التكنلوجيا التي جعلت منهم أشخاص ضعيفي النفوس خاوي الأرواح.

الفهيم:

نعم لقد أضحت معظم المجتمعات تعاني انهيارًا ثقافيًا، والانهيار الثقافي يخلق شعوبا تتدلى هكذا بلا جذور ومواطنيين لا حول لهم ولا قوة.

(٣٥)

صمت القوم قليلًا ليمسك كل منهم بكوب الشاي الذي أخذ الصبية يفرقونه بينهم،ثم كسر حاجز الصمت حاج الزين بعد رشفة رشفة من كوبه وقال:

الفهيم أفندي ..أنت ما شاء الله عليك يا ولدي معرفتك واسعة،ما هو رأيك في زمننا هذا ..المدينة أفضل أم قريتنا هذه؟

اعتدل الفهيم في جلسته وقال:

نعم رغم أن للمدينة محاسنها التي تكمن في اتساعها وضخامتها وقوتها وتنوع أماكنها وتخصصها وكثرة موردها البشرية والمادية، وأن هذه المحاسن قد تؤدي إلى شعور الإنسان بالحرية المتمثلة في تعدد اختياراته والتحرر والتخلص من القيود الاجتماعية التي تفرضها القرية بسبب ضيقها وعلاقاتها البشرية الملتحمة وتمسكها بالأعراف والتقاليد بيد أن هذه الحرية التي تعد حسنة المدينة هي في ذات الوقت مصدر سيئتها الأساسية التي تجسد الشعور بالعزلة والوحدة والغربة والضياع فخصائص المدينة من اتساع وضخامة وقسوة وجفاف ووتيرة عمل سريعة تضعف العلاقات الإنسانية وتجعل كل فرد منشغلًا

بذاته عن الآخرين.

الكريد:

صدقت يا الفهيم أفندي، ما أجمل ريفنا، ونسيمه العليل وفضائه الفسيح من زحمة المدينة ووحشتها حيث لا أنيس ولا جليس، وكل حي فيها مشغول بحاله.

الفهيم:

نعم، ريفنا جميل، لكن علينا الانتباه، وقد اتسع فضاء المدينة والمدنية وتداخل مع فضاء القرية الوديع، وأخذ تلقي ببعض ظلاله السالبة التي يلزمنا التصدي لها وتقويمها حتى لا تضيع جماليات القرية بين غياهب المدنية المطلقة التي تجافي القيم وتنكب على الماديات بلا هوادة..

(٣٦)

انتهي أنيس من وداع أصدقائه القادمين من المدينة، وانضم للجلسة الفريدة، التي لطالما اشتاق إليها هو يقاسي وحشة الغربة في تلك البلاد البعيدة،وقبل أن يستوي في كرسيه، باغته شيخ الباهي (المأذون) بالسؤال عن حال تلك البلاد المسماة بلاد الغرب وكيف أن الحياة فيها تمتاز بالرخاء والنظام والدقة، وتسودها الحرية الشخصية وغير ذلك مما يسمعون عن تلك البلاد!

فقاطعه الكريد ضاحكا:

ويقال أن البنات حلوات وماجنات، ويلبسن ويسرحن ويمرحن كما يحلو لهن.

اعتدل أنيس في جلسته، أخذ نفسًا عميقًا، حدق في السماء، ثم أطرق قليلًا، وبدأ الحديث بهدوء، وقال:

حقيقة بلاد الغرب تختلف عن بلادنا، والغربة صعبة وإن أعجبت الناس في ظاهرها، أي نعم البلاد الغربية مرتبة ومنظمة في كل أشكال حياتها ولا عجب إن سحرت النفوس بجمالها أو أجواءها اللطيفة التي وهبها الله سبحانه وتعالى لهم أو حتى بجمال أخلاق التعامل التي

توجد لدى شعوبها في كثير من الأحيان، ولكن لكل شعب ثقافة يحترمها، ومن ثقافات البلاد الغربية، وخصوصا البلاد التي كنت فيها،تحفظهم في تقبل لمن هم قادمون من الشرق ، حتى وإن كان هناك تقبل ظاهري، نعم نندمج معهم ونتعايش معهم ونخدمهم ويخدموننا ولكن في النهاية ومن صميم ثقافتهم يضعوننا أجزاء مكملة في مجتمعاتهم وهناك فرق بين الأساس والمكمل، فالشعب الغربي هو الأساس في ثقافة الغربي والآخرين مكملين، ومن السهل الاستغناء عن الكماليات.والمغترب أكثر شخص يشعر بهذه الثقافة الغربية، فتجده عادة يبحث عن ذاته في ملتقي شعوب منطقته أين ما كانوا، وللأسف تخوف المغترب في التداخل مع المجتمع الغربي والذي فرضه الغرب عليه يجعله حتى وإن قابل من هو شرقي مثله يحاول تقمص دور الرجل الغربي في تعامله وثقافته، حياة المغترب بشكل عام صعبة ومؤلمة مهما تخللها من مواقف ولحظات جميلة، المغترب يجد شيء من الصعوبة في السكن، وفي توفير مستلزماته، وفي العيش بشكل عام يحاول أن يتعايش مع المجتمع ويجد نفسه في ركن ضيق وهي المساحة التي تركتها له ثقافة المجتمع الغربي، أي ركن الحرية التي لم يتعود عليها في بلاده!ربما يستطيع أن يتعايش مع فتاة غربية ويوهم

نفسه بأنه أخذ كامل حقوقه في البلد الغربي، لكن الواقع أن هذه المساحة الضيقة التي وجدها توافقت مع حياة كبت كان يعيشها هو،فكانت نتيجة التوافق أن يرى في نفسه الشخص الغربي الذي يعيش في المجتمع الغربي، ولا يدري أن هذه الحرية هي من أعطت تلك الفتاة حق التغيير والبحث عن الآخر مثل فستان ارتدته في سهرة وخلعته قبل طلوع الصباح،إن المغترب يعيش وضع صعب ولا يعلم مثلًا أهو شرقي فيتعامل مع من حوله على هذا الأساس ،أم هو غربي فيحق له المطالبة بكامل حقوق الغربي، أما عن الأسرة، فالأمر صعب في مجتمعنا تدور القيم حول الأسرة، أما في المجتمع الغربي تدور القيم حول الفرد، لذا يكون للأسرة في مجتمعنا اليد العليا فوق الفرد، ويكون رب الأسرة ممثلًا لها وليس على الفرد سوي الانتماء لأسرته والانصياع لها، أما في الغرب فالفرد هو سيد مصيره، وتنتهي حضانة أسرته حين يبلغ رشده ، من ناحية أخرى قلما يعيش الأطفال مع والديهما لأن الأغلب وقوع الانفصال بين الوالدين، والشائع هو وجود الأب البديل،من عشيق أو زوج آخر للأم،أو أن تعيش الأم وقد تكفلت بولدها أو أولادها من علاقات عابرة أو غير شرعية، وهنا الحرية الفردية هي السبب، وبسبب غياب الأسرة فالعادة أن الفرد الغربي يبحث عن أسرة

بديلة ينتمي إليها ويحقق من خلالها إشباعه النفسي في الإنتماء لأسرة ما حتى لو كانت مصنوعة أو وهمية، لذا يتكاثر في الغرب الإنتماء للنوادي والجمعيات وغير ذلك من التجمعات الاجتماعية،بل تترسخ وتتأكد علاقات العمل في الشركة أو المؤسسة لتصبح الزمالة كالقرابة في الدم ولتصبح الشركة أو المؤسسة بديلًا عن الأسرة، ولكن نحن الحمد لله ينعم الفرد منا بالإنتماء إلى أسرته التي تشد من أزره و تقف إلى جانبه في الأفراح والأتراح، يعطيها الإنتماء وتعطيه الأمان.

العمدة مهدي:

هذا يعني أن حياة المغترب ليست بالسهلة كما كنا نظن! وماذا عن تربية الأبناء في هذا الجو من الحرية؟

صمت أنيس قليلًا، أطلق نفسا حارا، وبدا عليه شيء من التوتر عند سماع عبارة تربية الأبناء ، لكنه استجمع قواه وعاد إليه شيء من الهدوء ، ثم أخذ يرد على تساؤلات والده المشروعة:

فعلا حياة المغترب في الغرب صعبة والأصعب تربية الأبناء، والحل أصعب بكثير ويحتاج لجهد كبير، هو أن يتعلم المغترب مزايا ثقافتهم من جد وعمل وقدرة على التنافس وأن يتمسك بمزايا ثقافته من الانتماء والعفة الخلقية، وأن يجتنب مساوئ الحرية المطلقة في الانحلال دون

رابط أو وازع، وهنا يكون أمام أبنائنا في الغربة الغربية خيارين لا ثالث لهما، إما الصعود تمسكًا بالمزايا ، وإما الهبوط استسلامًا للمساوئ.

ثم حدق في السماء وقال قول من عاش تجربة قاسية رأي فيها الحرية التي تجعل الأبناء سيفًا مسلطًا على رقاب الآباء،وأن الآباء لا يستطيعون مراجعة الأبناء في أي شيء بحجة أنهم أحرار فيما يفعلون،وكيف أنه رأي فيها ابنته تتوجه صوب رجل آخر وزوجته وهي تبتسم وتناديهما:

(أبي وأمي ..أهلا بعائلتي الجديدة)

ورأى فيها والدتها تهوي على الأرض مغمى عليها وهي ترى ابنتها تنزع منها باسم الحرية ، ولم تمضي ساعات، حتى خرجت من المستشفي وهي محمولة على الأعناق إلي قبرها..ثم قال والعبرة تخنقه: وما أكثر الهبوط...وما أكثر الهبوط.

(٣٧)

الكريد كعادته تقفز في ذهنه الأشياء بلا مقدمات، فقال:

ألا تلاحظون أن مسألة سرقة المواشي قلّت في هذا الزمان، كنا لا يمضي علينا شهر أو شهرين إلا وخرج الناس في طلب لصوص نهبوا بهائم من هذه القرية أو تلك.

قهقه شيخ الباهي وقال:

زمان يا الكريد من يسرق يجد غابة تخفيه، ولكن الآن الأرض أصبحت صحراء جرداء كما ترى، فإلي أين يفر السارق حتى يختبئ إن ساءت به الأحوال وضيّق عليه طالبيه الخناق؟!

بل كان الناس يتقفون أثر المسروقات بالأرجل والدواب، ولكن الآن يمتطون أسرع السيارات، وفي ساعة من الزمان يأتون بسارقها مصفّد في الأغلال..

تبسم الفهيم وقال:

لم يعد اللص في عالم اليوم محتاج إلى غابة حتى يختبئ فيها، بل لم يعد محتاجًا لبذل جهد بأن يسرق بقدر ما أنه محتاج لبذل كثيرًا من الجهد ليكفّ عن السرقة..

شيخ الباهي:

صدقت يا ابني.

ما أكثر اللصوص في عالم اليوم.

العمدة مهدي:

الكثير من الناس أصبحوا يبحثون عن المال بأي طريقة إن كانت مشروعة أم غير مشروعة..

الفهيم:

هو كذلك يا عمي العمدة ، صار النّاس يحبون ويدورون حول صاحب المال ، والكثيرون منهم يمنون أنفسهم بالغنى وهم يتوهمون أن لا مكانة لأحدهم بين المجتمع إلا أن يكون غنيًا، الأمر الذي جعل الجشع أصبح سمة من سمات هذا الزمان..

شيخ محسن:

لا فض فوك يا ولدي .

فعلًا الجشع ،ثم الجشع.

(٣٨)

نُقل المبروك حاج الزين من مدرسة القرية إلى إحدى مدارس المدينة وهنالك ما زال بخير حتى تخلى عن مهنة التدريس وانغمس في عالم النفوذ والمال ، حتى انتهي به الأمر أن عينه أحد النافذين في ذلك العالم سكرتيرًا خاصًا، وعلقت حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه ونديمًا من ندمائه في ليالي المجون والعربدة،وصار ذات المعلم النبيل الشريف سكيرًا وعابثًا مستهترًا لايتقي عارًا ولا مأثمًا، وغارت به حفر الضلال إلى واد سحيق يوم أن تعلق بتلك الفاتنة العابثة"جسي" تلك الحسناء التي كان جمالها شؤما عليها، يوم أن ساومها عليه اللاهثون وراء عالم المتعة الآثم بأبخس الأثمان،فباعته إياه كارهة مرغمة متعللة بعوزها، فصارت من الخاسئين، تلك الحسناء الرقيقة التي كانت تنشد رجلًا يشتري جسمها وقلبها وحياتها بلا ثمن سوي سد خلّتها وصيانة عرضها وإرواء شبقها وحمايتها من شر الذئاب التي تلاحقها ليل نهار وهي الفقيرة الوحيدة في عالم المدينة الذي يسحق الضعفاء بلا رحمة، تحولت إلي ماجنة ماكرة ناقمة على معشر الرجال جميعا، وآلت على نفسها بأن تتخذ من جمالها آلة تنتقم بها

لعرضها وشرفها المهدور من أولئك العابثون ، وهي تنظر إليهم بعين الاحتقار ولسان حالها يقول بئس الرجال أولئك، ما كانت تطلب منهم سوى لقمة تسد بها الرمق ومأوي يحويها باسم الشرف والكرامة،وها هي باسم الرذيلة تأخذ كل ما في أيدهم وهم طائعين مختارين،فما أحقر نفوسهم وأخس أقدارهم.

(٣٩)

صار المبروك من ضحايا تلك المومس الناقمة، فسلبت عقله كما سلبت ماله، وأخذ يتعفر تحت قدميها في كثير الأوقات، وهو يمني نفسه بالزواج منها، وهي تعده الوعد المكذوب، لأنها تعلم أن القلوب الدائرة حولها إنما تدور حول جمالها لا عليها، وأن رداء الشرف والعفة الذي سلبه المجتمع لا يعيده إليها وإن طلبته، وعليه يكون الزواج والعفة عندها في حكم العدم، ولكنها للؤمها كانت تسايره وتسلبه بلا شفقة منها ولا عطف،وأورده ذلك العشق اليباب مورد الهلاك يوم أن ساءت حاله، وأخذ يتغيب عن عمله، ولم يستطيع مشغّله أن يحمله زمنًا طويلًا، فأقصاه من مجلسه استثقالًا له، ثم عزله من وظيفته استنكارًا لتغيبه وعبثه، ولم تذرف عليه عينه دمعة واحدة وهو يتوسل إليه في البقاء إلى جواره ولو عبدًا طائعًا خرج من عند ذلك السيد هائمًا على وجه، والأيام تأخذ من عقله حتى أصبح شبح يمشي في طريقه مشية المشدوه، لا يكاد يشعر بشيء مما حوله، متسخ الثياب والبدن، يحمل ملامح رجل في الستين من عمره وهو لم يسلخ عقده الرابع، يدور في الطرقات ليل نهار كثور الرحى، يأكل من فضلات الطعام الملقاة في

القمامة، ويفترش مـــجاري الصرف الجافة حتى تقيه لسعات البرد القارسة، وانقطعت أخباره عن القرية ولم يعرف له سبيل في فضاء المدينة الواسع، حتى سقط ذات يوم صريعًا يفحص التراب بأطرافه ويئن أنين المذبوح، والناس حوله آسفون عليه لا لمعرفته بل لأنهم رأوا في وجهه آيات التعاسة والبؤس،حمله بعض من الخيّرين إلى المستشفي ولكن حل القضاء وأسلم الروح إلى بارئها.

(٤٠)

سكن الليل وسكن كل شيء فيه إلا ضوء القمر المنبعث في أجواز الفضاء، ونسمات الهواء المنسابة بين خلجات بيوت القرية، والناس يغطون في نوم عميق، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت القرية مأتمًا قائمًا يبكي فيه الرجال والنساء، بعد نعي الناعي عبر الهاتف لحاج الزين ابنه المبروك، فجع حاج الزين في ابنه البكر ومفخرته التي كان يفتخر بها في المجالس، فهو أول فرحته، وكيف أنه ترعرع بين يده طفلًا وديعًا وصبيًا نبيهًا، حتى بلغ مبلغ الرجال وصار شابًا مهذبًا مؤدبًا ناجحًا في دراسته ، بارًا بوالديه وأساتذته موقرًا للكبار وراحمًا للصغار، وكيف أنه كان سعيدًا يوم أن تم تعينه معلمًا،وكيف أنه لم يدخر جهدًا في تعليم أبناء القرية يومًا حتى أصبح مديرًا لمدرستها الثانوية للبنين وكيف أن أهل القرية يحمدون له كثيرًا ويدعون له أكثر، لكن هكذا هي الأقدار.

وهكذا تنقضي الآجال، وصل جثمان الفقيد في الصباح الباكر،احتشد الخلق بكل مقاماتهم وهم ينتحبون ويترحمون وجلس حاج الزين يلتقي العزاء، بعد عجزت رجلاه على حمله من هول المصيبة، يمد يده

للمعزين وهو صامت لا يقوى على الكلام، سوى همهمته بالدعاء لفلذة كبده، نهض بتثاقل شديد بعد أن جُهز النعش وأزال الغطاء عن وجه المرحوم ليلقي نظرة الوداع، ثم أعاد الغطاء وتراجع قليلًا وقد أذن بحمل الجثمان إلى قبره ، مشي حاج الزين وراء النعش في صمت وعيناه تخضبان لحيته البيضاء بالدمع الثخين وهو يهمس بكلمات الترحم على بكر أنجاله، وما أن انقضى النهار حتى انقضى كل شيء، وأصبح المبروك بين يدي رب غفور رحيم.

(٤١)

توقفت العربة(البرادوالبيضاء)وفُتح بابها الأمامي الأيسر بهدوء، حطت على الأرض قدم تحتذي حذاءً أسودًا برّاقًا تلتها القدم الأخرى؛اعتلت إطار الباب كف يسرى كبيرة، تمسك بين سبابتها ووسطاها سجارة فاخرة يتصاعد دخانها بزهو، وجهه الأسمر، شارباه المنمقان بعناية فائقة يتوجان ابتسامته الرشيقة، شعره الأسود المرجّل،قامته الفارعة المشوقة، وبزته الزرقاء الداكنة..

إنسابت نظراته على وجهه الصغير..

إنه الرجل الذي أربك برير الفهيم برير غاية الإرباك وهو يتجه صوبه بعد أن أومأ إليه بأطراف يمناه، وسأله بثقة:

ما اسمك؟

برير.

ابتسم الرجل وهو يمز نفسًا من دخان سجارته وينفثه إلى أعلى قبل أن يستطرد:

ابن الفهيم برير.

برير:

أي نعم..

مد الرجل يده مصافحًا،فارتدت يد برير متفلتة من المصافحة فتداركها فالتحمت يداهما، شد الرجل على يد برير بقوة وقال له:

هيّا أركب.

تترد برير بعد أن حس بهيبة الرجل، فخطى خطوات للوراء..

فقال الرجل:

لا تخف يا ابني،أنا صديق أبيك..هيّا أركب حتى توصلني إلى منزلكم.

استقر برير في المقعد الأمامي اليمين داخل البرادو، غرز ظهره الصغير في المقعد الوثير، أسند رأسه بعلياء، انطلقت السيارة.

(٤٢)

نزل الفهيم إلى غرفة القبو التي لم ينزل إليها منذ رحيل والده إلا نزلته تلك التي كانت من بعد عودته من غيبته التي دامت لأكثر من عامين،حين فتح الصندوق الذي وصاه والده بالمحافظة عليه والانتفاع ما بداخله،فوجد فيه كمية من الذهب والفضة وبعض الجواهر، فباع بعضها وبنى بثمنها مدرستي القرية الثانويتين،جلس في الأريكة وشرد بذهنه وهو يذكر تفاصيل ذلك اليوم،بعد أن عاد به والده من المدينة وقطع علاقته بالمدرسة والدراسة.

اليوم الذي طلب منه أن يتبعه إلى غرفته، وفي داخل الغرفة رفع السجاد وكشف عن باب خشبي صغير يفضي إلى القبو فرفعه وأخرج مصباح جيب صغير وأمره بأن ينزل معه،إنحيا ونزلا على الدرجات التي كانت تصدر صريرًا حتى وصلا إلى هذه الحجرة الأرضية الخالية إلا من هذه الأريكة التي جلسا عليها وذلك الصندوق الخشبي الذي كانت تغطيه شباك العناكب ويتراكم عليه الغبار.

ثم أخذ يحدثه عن ذكرياته والأسرة وعن تؤم والده الذي كان تاجرًا متجولًا واختفي دون أن يوجد له أثر أو يعرف له طريق منذ ذلك الزمان،وانتقال والده به وبوالدته من قريتهم التي نشئوا فيها إلى هنا

وهو لم يزل ابن خمس سنين.

ثم مسد جفنيه طويلًا وتنهد تنهيدة عميقة،وطفق يحدثه عن جيلهم وهو ذلك الجيل الذي كانت تفاصيل يومه عفوية، يتسامر ويضحك ويتحدث مع بعض ولا يتحدث عن بعض،جيل للوالدين في دواخله هيبة واحترام، وللمعلم تبجيل وإكرام،جيل يرحم الصغار ويوقر الكبار،ويتقاسم مع الصديق المصروف والأسر،جيل يطعم الطعام ويقرئ السلام.

(٤٣)

صمت قليلًا ثم قال:

لدي أمر مهم لأخبرك به..

فتح صندوق معدني صغير كان قد أخرجه من الصندوق الخشبي الكبير وأخرج منه وثيقة دفعها إليه،وهي عبارة عن تنازل ونقل ملكية كل أملاكه من دكان ومزرعة ورصيد بنكي له.

الفهيم:

ما هذا يا أبي؟

صمت ولمع وميض قلق في عينيه وتلا الصمت صمت، وصار الإعياء على وجهه ملموسًا، وفهم الفهيم أن أباه لم يأت به إلى هنا إلا لأمر جلل.

ثم قال حاج برير:

لقد قررت يا بني أن أنقل إليك المسئولية قبل أن أرحل.

الفهيم:

ماذا؟

ترحل إلي أين؟!

..تقصد أن تموت.

حاج بريز:

هو ذاك..

ثم دقّق النظر وحاول أن يلاقي نظرته مع نظرته قــبل أن يقول بصوت حاني:

سامحني يا بني لقد قطعت عليك حلمك في مواصلة الدراسة..وهاأنذا أحملك المسئولية باكرًا.

وجد الفهيم صعوبة في إخفاء دموعه فبكي،فربّت عليه والده بعطف قائلًا:

لا تبك يا بني إنها سنة الحياة،ثم وصاه بوالدته خيرًا وأهل القرية والناس أجمعين.

صمت الفهيم وصمت المكان من حوله ثم قام إلى الصندوق الخشبي ففتحه وأخرج منه مجموعة من الصور وأخذ يتصفحها، ثم استوقفته صورة جده وتوأمه، وبينما هو كذلك، عرض له خاطر غريب،أنه ذات مرة سمع أمجد يقول له أن هنالك تتطابق بين اسم جده لأمه وجده.

فالأول هو سعد الكاظم حمد والثاني حمد الكاظم حمد.

يا تري هل ثمة علاقة بين الاسمين؟ أم الأمر مجرد تشابه أسماء!

أغمض عينيه ،تنهد طويلًا،أسند ظهره على الأريكة وأرخى يديه على فخذيه ونظر في سقف الحجرة الأبيض، سمع صوتًا يندده عليه في سطح الأرض ،إنه صوت ابنه برير.

فز من غفوته وهب وقفًا،خرج على عجل والصورة في يده.

برير:

أبي ،في الباب رجل يزعم أنه صديقك.

الفهيم:

حسنا يا بني.

وهو خارج تذكّر أن الصورة لا زالت في يده فوضعها مقلوبة على منضدة صغيرة في غرفة الضيوف وخرج إلى الضيف..

(٤٤)

مد يده مصافحًا ومرحبًا بالضيف ومحاولًا التعرّف عليه دون جدوى، فبادره أمجد:

يبدو أنك لم تعرفني؟

الفهيم:

العفو يا أخي ،حقيقة لم تسعفني الذاكرة.

فصاح أمجد بضحكته المميزة:

يا رجل، يبدو أن السن قد تقدمت بك.

عندها صاح به الفهيم:

أمجد..مرحّبًا..يا مرحبا ..

ثم عانقه بحرارة شديدة ،وهو لا يكاد يصدق عينيه ويقول صائحًا:

يا سلام ..تفضل يا رجل مرحبًا بك في بلدك وبيتك.

بعد تمام لوازم الضيافة والاحتفاء وتبادل التعزية في الأموات والتهنئة بالزواج، طفقا يحلّقان في عالم الذكريات وشقاوة الشباب.

فقال الفيهم لأمجد:

حدثنا عنك يا رجل.

ابتسم أمجد وقال:

طبعا أكيد لا زلت تذكر تلك الليلة الماجنة.

الفهيم:

بالتأكيد.وهل مثلها يُنسى!

أمجد:

سبحان الله ..لقد كانت نصائح حاج بدر سببًا بأن منّ الله علينا بالهداية.. وقد تحوّلنا ثلاثتنا إلي مدارس مختلفة. أما أنا فالتحقت بالجامعة ودرست الاقتصاد، ثم ذهبت إلي بريطانيا ونلت شهادتي الماجستير والدكتوراة ثم عدت واستلمت إدارة شركات جدي التي آلت لوالدتي بعد وفاته العام الماضي.

الفهيم:

وماذا عن سمير وشمعان؟!

أمجد:

سمير درس الإعلام وهاجر إلى أستراليا واستقر هناك.. أما شمعان فصادفته مرة على عجل وعرفت منه أنه بعد تخرجه حظي بمنحة دراسية، تخرج فيها بدرجة البكالوريوس ثم أكمل الماجستير والآن يعمل بإحدى المنظمات الدولية الناشطة في مكافحة المخدرات.

أما أخبارك فعرفتها من حاج بدر الذي تعرّفت عليه عن قرب يوم أن جاء معزيًا في وفاة جدي لمعرفته به في سوق العمل ، فقررت أن أفاجئك بالزيارة.

تسلم أخي ..لقد شرفتنا كثيرًا بزيارتك أخي أمجد..أهلًا وسهلًا.

(٤٥)

كانت الصورة وهي في وضعها المقلوب الذي تركها عليه الفهيم على المنضدة التي بجواره ، فحمله الفضول على قراءة التاريخ الذي كان في طرفها ،فوجده مطابقًا لما هو مكتوب بخط جميل ولون أسود على الصورة التي أعطاها له جده قبل وفاته،وذكر له أنها صورته مع توأمه الذي فارقه منذ أيام الشباب بعد أن عصفت به شئون التجارة وترحالها إلى خارج أسوار الوطن سنين عددًا، ولما عاد بعد تلك السنين واستقر في العاصمة، ذهب يبحث عن توأمه في القرية التي نشآ فيها فلم يجده،إلا أنه وجد شيخًا كبيرًا أكد له أن أخاه قد غادر القرية منذ زمنٍ بعيد ولم يعرف عنه بعد ذلك شيئًا..

أمجد:

لمن هذه الصورة؟ّ

الفهيم:

صورة جدي وتوأمه الذي اختفي منذ شبابهما.

ماذا؟!

رفع أمجد الصورة وحدّق فيها بتمعن،وكانت المفاجأة بأنه أضحى أكثر يقينًا على أنها مطابقة تمامًا للصورة التي ورثها عن جده.

فقال للفهيم:

أمتأكد أنت أن من في هذه الصورة هو جدك وتوأمه؟

تنافرت ملامح الفهيم من فجأة السؤال، لكنه أردف القول مؤكدًا لرده:

قطعًا..

هرع أمجد إلى سيارته وطفق يبحث عن الصورة التي معه، ثم عاد بها ليضعها إلى جانب تلك التي تطابقت معها تمامًا.

تمت

رقم الإيداع/٤٤-١٧-٠٤-١١-٢٠٢٠